

برج بابل الجديد

نبذة عن الكاتب

عبدالله جمعة المضاحكة كاتب وباحث قطري، يهتم بدراسة التاريخ، وتحولات الفكر الإنساني، والعلاقة بين الدين والحضارة والسياسة. يركز في أعماله على قراءة الأحداث من خلال السنن التاريخية والقيم الإنسانية، مع الحرص على الجمع بين البحث المعرفي والسرد الأدبي.

في روايته «برج بابل الجديد» يقدم عملاً يجمع بين الرواية الفكرية والتاريخية، مستكشفاً الأسئلة الكبرى التي صاحبت الإنسان عبر العصور: كيف تنشأ الحضارات؟ ولماذا تسقط؟ وما العلاقة بين المعرفة والقوة والأخلاق؟ وهل يستطيع الإنسان أن يبني مستقبلاً أكثر تقدماً دون أن يفقد إنسانيته؟

يسعى الكاتب إلى تقديم أعمال تدعو القارئ إلى التفكير والحوار، وتؤمن بأن الحقيقة لا تُختزل في رأي واحد، بل تُكتشف بالبحث، والتأمل، والانفتاح على الأسئلة الكبرى التي رافقت الإنسان منذ بداية التاريخ

كلمة الكاتب

لم تبدأ هذه الرواية من شخصية خيالية، بل من سؤال تاريخي ظل يلاحقني: كيف يمكن لمدينة واحدة، وفي لحظة تاريخية محددة، أن تجمع أفكاراً وشخصيات ستؤثر لاحقاً في مسار العالم؟

كان تأملي في فيينا عام 1913 هو الشرارة الأولى التي ولدت فكرة هذه الرواية. فهناك، في قلب أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى، تداخلت تيارات فكرية وسياسية مختلفة: التحليل النفسي، القوميات، الاشتراكية، الصهيونية السياسية، والصراعات التي ستعيد تشكيل القرن العشرين.

لم تكن هذه القراءة هي الرواية نفسها، بل كانت الباب الذي قادني إليها. ومع تطور الفكرة، تحولت الأسئلة التاريخية إلى شخصيات وأحداث وصراع فكري، حتى أصبحت رواية تحمل رؤيتها الخاصة وتطرح أسئلتها حول الإنسان والتاريخ وصناعة المستقبل.

القرن القادم: سقوط برج بابل الجديد

مقدمة

لم تكتب هذه الرواية لتقدم أجوبة جاهزة، ولا لتدعو القارئ إلى تبني موقف سياسي أو ديني أو فكري بعينه.

لقد كتبت لأتني أؤمن أن أخطر ما يمكن أن يصيب الإنسان ليس اختلافه مع الآخرين، بل توقفه عن طرح الأسئلة.

طوال التاريخ، تعاقبت الإمبراطوريات، وتبدلت الدول، وظهرت أفكار ادّعت أنها تمتلك الطريق الوحيد إلى المستقبل. بعضها حمل وعوداً بالعدل، وبعضها رفع شعارات الحرية، وبعضها آمن بأن العلم وحده سيحل جميع مشكلات الإنسان.

لكن التاريخ يكرر سؤالاً واحداً بصورة مختلفة:

ماذا يحدث عندما يمتلك الإنسان القوة؟

وهل تكفي المعرفة وحدها لصناعة حضارة عادلة؟

هذه الرواية ليست عن شعب بعينه، ولا عن دولة بعينها، ولا عن دين بعينه.

إنها رواية عن الإنسان.

عن خوفه، وطموحه، وغروره، وأحلامه، وعن اللحظة التي ينسى فيها أن القوة تكلف قبل أن تكون امتيازاً.

ستجد في هذه الصفحات شخصيات تنتمي إلى حضارات وثقافات مختلفة. لكل منها منطق، ولكل منها أسبابه، ولكل منها ما يراه حقيقة. لم يكن الهدف أن ينتصر صوت على آخر، بل أن يتقاطع الجميع أمام سؤال أكبر منهم جميعاً.

وقد كان القرآن الكريم حاضراً في بناء هذه الرواية، لا بوصفه مادة للجدل، ولا كشعارات تُرفع، بل بوصفه مصدراً لفهم سنن الله في التاريخ والإنسان. فالسنن لا تحابي أمة، ولا تستثني حضارة، ولا تمنح أحداً حصانة دائمة. إنها قوانين تجري على الجميع: على الفرد، وعلى المجتمع، وعلى كل مشروع يبلغ ذروة قوته ثم ينسى مسؤوليته.

لذلك، فإن أحداث هذه الرواية وإن استلهمت وقائع تاريخية وشخصيات فكرية وتيارات معاصرة، فهي عمل أدبي يتخذ من الخيال وسيلة لطرح أسئلة حقيقية، لا لإصدار أحكام نهائية.

إذا خرج القارئ من هذه الرواية وهو يملك أسئلة أكثر مما كان يملك قبل أن يقرأها، فساعد أن هذه الصفحات قد حققت غايتها.

فالحقيقة ليست ملكاً لأحد، لكنها تستحق أن يُبحث عنها بإخلاص، وبشجاعة، وبقدر من التواضع أمام تعقيد الإنسان والتاريخ.

المقدمة الروائية

في نهاية القرن الحادي والعشرين، لم يعد العالم الذي عرفه الإنسان عبر آلاف السنين هو العالم نفسه.

لم تعد القوة تُقاس بعدد الجيوش، ولا النفوذ باتساع الحدود، ولا الثروة بما تملكه الدول من ذهب أو موارد طبيعية. لقد ظهر شكل جديد من السلطة؛ سلطة لا تحتاج إلى احتلال الأرض، لأنها أصبحت قادرة على إدارة الإنسان من خلال المعرفة والمعلومات.

لم يعد السيطرة على المدن هو الهدف، بل السيطرة على ما هو أعمق:

العقول.

الاختيارات.

الرغبات.

لقد نشأ نظام عالمي جديد، يقوم على شبكة مترابطة لم يعرف التاريخ مثلاً من قبل:

هوية رقمية واحدة تحدد وجود الإنسان.

اقتصاد عالمي مترابط تتحكم به الخوارزميات.

ذكاء اصطناعي قادر على تحليل السلوك البشري والتنبؤ بالقرارات قبل أن يدرك الإنسان نفسه أسبابها.

كان العالم يعتقد أنه دخل عصر الخلاص الإنساني.

انتهت أمراض كثيرة.

تراجعت الجرائم.

انخفضت الفوضى.

أصبحت التكنولوجيا تعد الإنسان بحياة أكثر راحة وأماناً.

لكن خلف هذا النجاح الظاهري بقي سؤال لم يجد له أحد جواباً:

هل أصبح الإنسان أكثر حرية؟

أم أنه انتقل من عبودية القوة القديمة إلى عبودية نظام جديد لا يرى قيوده؟

في قلب هذا العالم عاش عبدالله السالمي، الباحث في فلسفة الحضارات وتاريخ الأفكار، رجل أمضى عمره في دراسة سؤال واحد ظل يلاحقه:

لماذا تبدأ الحضارات بالسعي إلى بناء المستقبل، ثم تنتهي أحياناً ببناء القيود التي تسقطها؟

كان عبدالله يؤمن أن التاريخ لا يعيد نفسه بالأسماء، وإنما يعيد نفسه بالمعاني.

ففرعون لم يكن مجرد حاكم عاش في زمن قديم، بل كان رمزاً للإنسان عندما تمنحه القوة شعوراً بأنه فوق حدود البشر.

ونمرود لم يكن مجرد ملك من الماضي، بل صورة لإنسان ظن أن امتلاكه للسلطة يجعله قادراً على تحدي قوانين الوجود.

أما برج بابل، فلم يكن بالنسبة لعبدالله مجرد حكاية تاريخية، بل كان رمزاً لمحاولة الإنسان أن يصل إلى السماء بقوته، وأن يبني مجده بعيداً عن مصدر الخلق.

لكن عبدالله بدأ يرى أن البشرية في القرن القادم لم تعد تبني أبراجها من الحجارة.

لقد بدأت تبني برجها الجديد من مواد أكثر خطورة:

البيانات.

الخوارزميات.

الذكاء الاصطناعي.

والقدرة على إعادة تشكيل الإنسان نفسه.

كان السؤال الذي يطارده في كل أبحاثه:

ماذا يحدث عندما ينجح الإنسان في بناء عالم كامل، لكنه ينسى السؤال الأهم:

من وضع القوانين التي تحكم هذا العالم؟

وهل يستطيع الإنسان أن يصنع مستقبلاً بلا حدود، إذا قرر أن يستغني عن خالقه؟

كان عبدالله يعلم أن التاريخ يحمل تحذيراً متكرراً:

كل حضارة ظنت أنها امتلكت السيطرة المطلقة، اكتشفت في النهاية أن الإنسان مهما بلغت قوته يبقى جزءاً من نظام أكبر منه.

وفي اللحظة التي يظن فيها أنه أصبح سيد الكون...

قد تكون تلك بداية سقوط برجه الجديد.

صوت الرواية

تُروى هذه الرواية بصوت الراوي العليم، لكنها تقترب من العالم الداخلي لعبدالله السالمي، فيرى القارئ الأحداث من خلال رحلته الفكرية، وأبحاثه، وصراعاته النفسية، والأسئلة التي ترافقه وهو يحاول فهم حركة التاريخ واتجاه الحضارة.

ليس عبدالله مجرد ناقل للأفكار، ولا متحدث باسم الكاتب، بل باحث يعيش ما يدرسه، ويعيد مراجعة قناعاته كلما اتسعت أمامه دوائر المعرفة. وكلما ظن أنه اقترب من الإجابة، اكتشف أن الطريق يفتح أمامه سؤالاً أعمق.

ولهذا، لا تقدم الرواية حقائق جاهزة، ولا تدعو القارئ إلى تبني رؤية محددة، بل تصحبه في رحلة تأمل وبحث، حيث تبقى الأسئلة أوسع من الإجابات.

هذه ليست رواية تقول:

“هذا هو الواقع.”

بل رواية تسأل:

“إلى أين يقود الإنسان طموحه عندما يعتقد أنه أصبح قادراً على إعادة تشكيل العالم؟”

ولا تقوم شخصياتها على ثنائية الخير المطلق والشر المطلق، فلكل شخصية دوافعها، ومخاوفها، وقناعاتها، ومنطقها الذي ترى من خلاله العالم.

فالصراع الحقيقي ليس بين أشخاص أو أمم فحسب، بل بين رؤيتين للإنسان:

رؤية تؤمن بأن المعرفة والقوة تمنح الإنسان الحق في إعادة تشكيل العالم وفق إرادته.

ورؤية تدرك أن كل قوة، مهما بلغت، تبقى محدودة أمام سنن الكون، وأن الحكمة لا تقل أهمية عن المعرفة.

وفي النهاية، تترك الرواية للقارئ سؤالها المفتوح:

هل يستطيع الإنسان أن يبني مستقبلاً أكثر تقدماً... إذا فقد المعنى الذي يمنح هذا المستقبل إنسانيته؟

الشخصيات الرئيسية

عبدالله السالمي

الباحث في القرآن وفلسفة الحضارات

العمر: 55 عاماً

لا يقرأ عبدالله السالمي القرآن بوصفه سجلاً للماضي، بل بوصفه كتاباً يكشف سنن الله التي تحكم الإنسان والتاريخ والحضارات.

أمضى عمره متنقلاً بين الفلسفة والتاريخ ومقارنة الأديان، باحثاً عن القانون الذي يجعل الأمم تنهض، ثم يجعلها تسقط وهي في ذروة قوتها. لم يكن هدفه إدانة حضارة أو تمجيد أخرى، بل فهم النمط الذي يتكرر عبر الأزمنة: كيف يتحول الإنسان من حامل للأمانة إلى عابِدٍ للقوة؟

يؤمن أن الأزمة الكبرى في عصرنا ليست أزمة علم أو تكنولوجيا، بل أزمة معنى، وأن أخطر لحظة في حياة الأمم هي حين تتوهم أن امتلاك القوة يمنحها الحق في إعادة تعريف الإنسان والعالم.

لكن رحلته الفكرية تقوده إلى مواجهة السؤال الأصعب:

هل كان يبحث عن الحقيقة... أم عن دليل يؤكد ما آمن به منذ البداية؟

يعقوب بن شاول

المؤرخ اليهودي

كان يعقوب بن شاول يؤمن بأن الوثيقة الصادقة أكثر شجاعة من أي خطاب سياسي.

ولهذا كرس حياته بين المخطوطات والأرشيف، مقتنعاً بأن التاريخ لا يُقرأ بالانحياز، بل بفهم تعقيداته وسياقاته. يرى أن الصهيونية نشأت في بيئة صنعتها قرون من الاضطهاد والخوف والسعي إلى الأمان، ويرفض اختزالها في صورة واحدة أو تفسير واحد.

غير أن حواراته الطويلة مع عبدالله تدفعه إلى مراجعة أعمق مما تسمح به الوثائق.

هل يستطيع أي مشروع بدأ دفاعاً عن الوجود أن يحافظ على حدوده الأخلاقية بعد أن يمتلك القوة؟

ومن هناك تبدأ رحلته الحقيقية؛ لا للدفاع عن الماضي، بل لفهم ما تفعله القوة بالذاكرة.

جوناثان ميلر

المفكر المسيحي واللاهوتي السياسي

يرى جوناثان ميلر أن الأفكار الدينية لم تكن يوماً هامشاً في التاريخ، بل كانت في كثير من الأحيان القوة التي منحت الشعوب معنى لوجودها واتجاهاً لمصيرها.

ووصفته أستاذاً في اللاهوت السياسي، يؤمن بأن بعض التحولات الكبرى لا يمكن تفسيرها بالمصالح وحدها، بل تحتاج إلى فهم البعد الروحي الذي يحرك الإنسان.

لكن لقاءه بعبدالله يفتح أمامه باباً لم يكن يتوقعه.

هل يستطيع الإنسان أن يميز بين إرادة الله... ورغباته السياسية التي يكسوها ثوب الإيمان؟

وهكذا يبدأ صراعه بين العقيدة والسلطة.

مايكل أندرسون

الإستراتيجي الأمريكي

قضى مايكل أندرسون حياته داخل دوائر صناعة القرار، حيث تُقاس القرارات بميزان الأمن والمصلحة والاستقرار.

يؤمن أن العالم لا يصمد طويلاً دون نظام قادر على منع الفوضى، وأن القيادة العالمية ليست امتيازاً، بل مسؤولية ثقيلة.

غير أن السنوات علمته أن القوة لا تكتفي بحماية النظام، بل تميل مع الزمن إلى إعادة تشكيله.

فمتى تتحول حماية العالم إلى السيطرة عليه؟

وهل تستطيع القوة أن تمنع الفوضى دون أن تصبح هي نفسها مصدرًا لها؟

لي وانغ

الفيلسوف الصيني

ينظر لي وانغ إلى التاريخ كما لو كان نهراً طويلاً تتعاقب على ضفافه الحضارات.

ففي نظره، لا توجد هيمنة أبدية، ولا سقوط نهائي، بل دورات تتبادل فيها الأمم مواقع الصعود والهبوط.

يؤمن أن العالم يقترب من عصر تتوازن فيه الحضارات بدل أن تخضع لإرادة حضارة واحدة.

لكن التاريخ يهمس له دائماً بالسؤال ذاته:

هل تختلف القوى الصاعدة حقاً عن القوى التي سبقتها... أم أنها تعيد القصة نفسها بأسماء جديدة؟

أرفيند راو

المفكر الهندي

يحاول أرفيند راو أن يبني جسراً بين حكمة الشرق وثورة التكنولوجيا.

يرى أن المستقبل لن يصنعه العقل وحده، ولا الروح وحدها، بل التوازن بين المعرفة والأخلاق، وبين التقدم والمسؤولية.

ومع كل إنجاز علمي جديد، يعود إليه السؤال نفسه:

هل تستطيع الحكمة القديمة أن تقود المستقبل... أم أن سرعة العالم الحديث ستبتلعها قبل أن نسمع صوتها؟

ألكسي بتروف

الفيلسوف الروسي

يرى ألكسي بتروف أن التاريخ ليس سوى حركة مستمرة بين مراكز القوة، وأن احتكار قيادة العالم لا ينتج الاستقرار بقدر ما يولد مقاومة جديدة.

يدافع عن عالم متعدد الأقطاب، لكنه يعرف أن المشكلة لا تكمن في عدد القوى، بل في طبيعة الإنسان الذي يديرها.

ولهذا يظل سؤال واحد يرافقه:

هل تستطيع الحضارات أن تتعايش حقاً... دون أن يحاول كل منها فرض صورته على الآخرين؟

دانيال كيم

عالم الذكاء الاصطناعي

كان دانيال كيم يعتقد أن الخوارزميات قادرة على معالجة كثير من أخطاء البشر أكثر مما يستطيع البشر معالجة أنفسهم.

ولهذا كرّس حياته لتطوير أنظمة نكاء اصطناعي يراها أكثر هدوءًا، وأكثر كفاءة، وأقل خضوعًا للطمع والخوف والانفعال.

لكن عبدالله يضع أمامه سؤالاً لم تستطع معادلاته الإجابة عنه.

إذا نجحنا في إزالة الخطأ من الإنسان... فهل يبقى الإنسان كما هو؟

ومن هنا يبدأ أحد أهم الصراعات الفكرية في الرواية:

هل ستظل التكنولوجيا أداة في يد الإنسان...

أم سيصبح الإنسان جزءًا من النظام الذي صنعه بيديه؟

سارة النجار

الصحفية... شاهدة الرحلة

كانت سارة النجار تبحث عن قصة صحفية تسبق بها الجميع، لكنها وجدت نفسها داخل قصة ستغيّر فهمها للحقيقة.

دخلت الرحلة وهي تؤمن أن الحقيقة هي ما يمكن إثباته ونشره، لكنها تكتشف تدريجيًا أن الحقيقة ليست معلومات تُجمع فقط، بل مسؤولية أخلاقية في كيفية حملها ونقلها.

ومع تقدم الأحداث، تتحول من مراقبة للأفكار إلى جزء من الصراع نفسه، فتغدو عين القارئ التي ترى، وصوته الذي يسأل، وضميره الذي يوازن بين المعرفة والحكمة.

وفي النهاية تواجه السؤال الذي لم تتخيل يومًا أنها ستطرحه على نفسها:

هل وظيفة الصحفي أن يكشف الحقيقة فقط... أم أن يحسن حملها أيضًا؟

الجزء الأول

الفكرة التي سبقت الدولة

قبل أن يطلع الفجر بقليل، أغلق عبدالله السالمي آخر كتاب، ثم ترك يده تستقر فوق غلافه دون أن ينهض.

لم يكن مرهقًا من القراءة.

بل من سؤال ظل يرافقه أكثر من ثلاثين عامًا.

لماذا تتشابه نهايات الحضارات، مهما اختلفت لغاتها وأديانها وأبطالها؟

امتدت أمامه رفوف مكتبة أثقلتها السنون؛ كتب في الفلسفة، ومجلدات في التاريخ، ونصوص دينية بلغات شتى، وخرائط لحدودٍ تغيّرت حتى كأنها لم تكن، ورسائل كتبها رجال ظنوا أن قراراتهم ستبقى إلى الأبد.

لكن أكثر ما استوقفه تلك الليلة لم يكن كتابًا.

كان ملفًا رماديًا نحيلًا، كتب على غلافه بخط يده:

«كيف تولد المشاريع التي تغيّر العالم؟»

ظل يتأمل العنوان طويلاً.

ثم ابتسم ابتسامة بالكاد ظهرت.

كلما اتسعت معرفته، ازداد اقتناعاً بأن التاريخ يخدع من يقرأه من نهايته.

فالناس يحفظون أسماء الدول بعد أن تستقر حدودها، ويتحدثون عن الإمبراطوريات بعد أن تبلغ ذروة سلطانها، لكن قليلين يعودون إلى اللحظة التي لم يكن فيها شيءٌ قد بدأ بعد.

إلى تلك الفكرة الصغيرة...

التي لم تكن يوماً أكثر من سؤال في عقل إنسان.

نهض واتجه إلى النافذة.

كانت المدينة ما تزال مستيقظة.

أبراج زجاجية تلتقط الضوء، وشوارع تنساب فيها السيارات بصمت، وشاشات لا تنام.

تأمل المشهد، ثم مرّت في ذهنه مدنٌ أخرى.

بابل.

روما.

القسطنطينية.

لندن.

واشنطن.

كم بدا كل منها، في زمنه، مركزاً للعالم.

ثم انتهى إلى فصل في كتاب.

همس وكأنه يخاطب نفسه:

«لا توجد حضارة تبدأ وهي تعرف نهايتها.»

عاد إلى مكتبه، وفتح دفتر ملاحظاته.

في أعلى الصفحة سؤال واحد:

«هل تولد الدول... أم تُصنع؟»

ظل القلم معلقاً بين أصابعه.

كتب سطرًا، ثم توقف.

قرأه مرة.

وشطبه.

لم يعد يطمئن إلى الجمل البليغة كما كان من قبل.

فالعبارات الجميلة قد تُقنع القارئ...

أما الأسئلة الصعبة فهي وحدها التي تُقنع الباحث.

طوال سنوات، قرأ الحضارات كما يقرأ الطبيب ملف مريض يحاول أن يعرف سبب الوفاة، لا تاريخ الميلاد.

لم يكن يبحث عن مذنب.

ولا عن بطل.

كان يبحث عن القانون الذي يتكرر بصمت، مهما تبدلت الأسماء والوجوه.

وأدرك مع الزمن أن الحضارات لا تنهار فجأة.

إنها تبدأ بالسقوط قبل أن يدرك أحد أنها تسقط.

بسلسلة تغيّرات صغيرة تبدو عادية، حتى يأتي اليوم الذي يظن فيه الجميع أن الانهيار حدث فجأة.

ولهذا لم يكن يسأل:

من انتصر؟

بل كان يسأل دائمًا:

ما الفكرة التي صنعت هذا الانتصار؟

قادته رحلته إلى أوروبا في القرن التاسع عشر.

هناك لم تكن القارة تشهد ميلاد دول جديدة فحسب، بل ميلاد تصورات جديدة عن الإنسان، والهوية، والدولة، والسلطة.

كانت الإمبراطوريات القديمة تترنح.

والقوميات الحديثة تتشكل.

والثورات تعيد رسم الخرائط والأفكار معًا.

في ذلك العصر ظهرت مشاريع متعددة، لكل منها وعده الخاص بالمستقبل.

منها من جعل الحرية غايته.

ومنها من جعل الثورة طريقه.

ومنها من رأى في القومية خلاصاً.

ومنها من حاول إعادة صياغة العلاقة بين الدين والسياسة.

وفي هذا السياق التاريخي برزت الحركة الصهيونية السياسية بوصفها مشروعاً سعى إلى تحويل هوية دينية وتاريخية إلى مشروع سياسي منظم، يمتلك رؤية ومؤسسات وأهدافاً واضحة.

لم يتعامل عبدالله مع ذلك بوصفه حالة استثنائية.

بل بوصفه مثلاً على قانونٍ يتكرر في التاريخ.

فكل مشروع كبير يبدأ بسؤال وجودي:

من نحن؟

وأي مكاننا؟

وكيف نضمن استمرارنا؟

لكن الولادة ليست أصعب مراحل المشروع.

إنما اللحظة التي يمتلك فيها القوة.

كتب في دفتره:

«ليس السؤال: لماذا ولدت الفكرة؟»

بل: ماذا أصبحت بعد أن امتلكت القوة؟»

أغلق الدفتر ببطء.

وأغمض عينيه.

عندها داهمه السؤال الذي كان يهرب منه منذ سنوات.

هل كنت أبحث عن الحقيقة فعلاً... أم عن أدلة تؤكد ما أوّمن به؟

فتح عينيه بسرعة.

كان يعرف أن الباحث لا يفقد نزاهته عندما يجهل الحقيقة.

بل عندما يقع في حب نظريته.

في تلك اللحظة، قطع رنين الهاتف صمت الغرفة.

كانت رسالة من الصحفية سارة النجار.

دكتور عبدالله...

أظن أنني وجدت السؤال الذي يستحق أن تبدأ منه قصتك.

لماذا تتشابه الأحلام التي تبدأ بإنقاذ العالم... ثم تنتهي بمحاولة السيطرة عليه؟

قرأ الرسالة أكثر من مرة.

ثم رفع نظره نحو الملف الرمادي.

لأول مرة شعر أن رحلته خرجت من حدود البحث الأكاديمي.

لم يعد السؤال:

كيف تغير المشاريع العالم؟

بل أصبح:

كيف تغير المشاريع أصحابها؟

أطفأ مصباح المكتب.

غاصت الغرفة في الظلام.

لكن سؤالاً واحداً ظل مضاءً في داخله:

هل تسقط الحضارات لأنها امتلكت القوة... أم لأنها نسيت لماذا سعت إليها منذ البداية؟

الفصل الأول

المدينة التي لم يعد فيها الإنسان ضرورياً

في ذلك الصباح، استيقظت المدينة قبل سكانها.

لم يكن ذلك تعبيراً مجازياً.

فالمدينة الجديدة لم تعد تنتظر الإنسان ليحركها، كما كانت المدن القديمة تفعل عبر آلاف السنين.

لم تعد بحاجة إلى عامل يفتح متجرًا، أو موظف يدير مؤسسة، أو سائق يقود مركبة.

كانت الشبكات تعمل قبل أن يستيقظ البشر.

الأنظمة تحلل.

الخوارزميات تقرر.

والآلات تنفذ.

كل شيء كان يسير بدقة مذهلة.

حتى الفوضى التي كانت جزءًا من طبيعة الإنسان أصبحت شيئًا تحاول المدينة التخلص منه.

كانوا يسمونها:

“مرحلة الحضارة الذكية.”

لكن عبدالله السالمي كان يسميها في مذكراته:

“المرحلة التي بدأ فيها الإنسان يسأل: هل ما زال العالم يحتاج إليه؟”

وقف عبدالله أمام النافذة الكبيرة في شقته المطلّة على المدينة.

كان في الخامسة والخمسين من عمره، لكنه شعر في تلك اللحظة بأنه ينظر إلى عالم لا ينتمي إلى الزمن الذي عاش فيه.

تحت النافذة كانت الأبراج ترتفع نحو السماء كأنها جبال من الزجاج.

في الشوارع تحركت المركبات بلا سائقين.

وفي السماء مرت طائرات صغيرة تحمل البضائع بين المباني.

لم يعد أحد يصرخ في الشوارع.

لم تعد هناك فوضى.

لم تعد هناك أخطاء كثيرة.

كان كل شيء مثاليًا.

ورغم ذلك، شعر عبدالله بشيء من القلق.

كان يعرف أن أخطر اللحظات في التاريخ ليست عندما يفشل الإنسان.

بل عندما ينجح إلى درجة تجعله ينسى حدوده.

منذ شبابه، لم يكن عبدالله مهتمًا بتاريخ الملوك والحروب فقط.

كان يبحث عن شيء أعمق.

كان يبحث عن اللحظة التي يتغير فيها الإنسان من باحث عن الحقيقة إلى شخص يظن أنه أصبح يملكها.

لهذا أمضى حياته يدرس الحضارات.

قرأ عن فراعنة مصر.

قرأ عن الملوك الذين بنوا إمبراطوريات عظيمة ثم اختفت أسماؤهم.

قرأ عن النمرود، وعن الإنسان الذي ظن أن القوة تمنحه حق تحدي السماء.

وكان يرى أن القصص القديمة لم تكن عن أشخاص ماتوا منذ آلاف السنين فقط.

بل عن نماذج بشرية تتكرر بأشكال مختلفة.

تتغير الأدوات.

لكن السؤال يبقى نفسه:

ماذا يحدث عندما تصبح القوة أكبر من الحكمة؟

على مكتبه كان هناك كتاب مفتوح، وبجانبه ملاحظة كتبها قبل سنوات:

“كل حضارة تبني برجها الخاص.”

نظر إلى العبارة طويلاً.

في الماضي كان البرج من الحجارة.

اليوم أصبح من البيانات.

في الماضي أراد الإنسان الوصول إلى السماء بيديه.

اليوم يريد الوصول إلى كل عقل على الأرض عبر شبكة واحدة.

لم يكن عبدالله يخشى المعرفة.

ولم يكن عدواً للتكنولوجيا.

بل كان يؤمن أن العلم من أعظم ما منح الله للإنسان.

لكن المشكلة لم تكن في الأداة.

المشكلة في اليد التي تحملها.

وصلته دعوة لحضور مؤتمر عالمي في مدينة نيويورك الجديدة.

كان عنوان المؤتمر:

“المستقبل بعد الإنسان التقليدي: هل تبدأ مرحلة جديدة من الحضارة؟”

ضحك عبدالله عندما قرأ العنوان.

لم يعجبه التعبير.

“بعد الإنسان.”

كلمتان بسيطتان، لكنهما تحملان سؤالاً خطيراً.

هل المقصود أن الإنسان سيتطور؟

أم أن دوره سينتهي؟

في قاعة المؤتمر اجتمع نخبة من المفكرين والقادة.

كان بينهم أشخاص أمضى عبدالله سنوات يقرأ أفكارهم.

يعقوب بن شاؤول، المؤرخ اليهودي الذي كرس حياته لدراسة تاريخ اليهود والحركات السياسية المرتبطة بهم.

رجل هادئ، لا يتحدث بالشعارات، بل بالوثائق.

كان يؤمن أن التاريخ لا يفهم إلا بفهم خوف الشعوب وذكراياتها.

جوناثان ميلر، أستاذ اللاهوت السياسي، الذي يرى أن الدين ما زال قوة مؤثرة في صناعة التاريخ.

مايكل أندرسون، الاستراتيجي الأمريكي، الذي يعتقد أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا مركز قوة يقوده.

لي وانغ، الفيلسوف الصيني، الذي يرى أن النظام العالمي القديم يقترب من نهايته.

أرفيند راو، المفكر الهندي، الذي يحاول الجمع بين الحكمة القديمة والعلم الحديث.

ألكسي بتروف، الفيلسوف الروسي، الذي يرى أن التوازن بين القوى هو الطريق الوحيد لمنع الهيمنة.

ودانيال كيم، الرجل الذي جاء من المستقبل قبل الجميع.

عالم الذكاء الاصطناعي الذي آمن أن أكبر مشكلة في العالم ليست نقص الموارد، بل سوء إدارة البشر لها.

بدأ دانيال حديثه أمام الحضور:

“لأول مرة في التاريخ، نملك القدرة على تقليل أخطاء الإنسان.”

ظهرت على الشاشة صور لمدن ذكية، ومستشفيات آلية، وأنظمة اقتصادية تعمل دون تدخل بشري كبير.

قال:

“الخوارزمية لا تحمل غضباً، ولا طمعاً، ولا خوفاً. إذا كانت مشاعر الإنسان سبباً لكثير من الفوضى، فربما يكون الحل في نظام أكثر عقلانية.”

صفق بعض الحضور.

أما عبدالله فبقي صامئاً.

لم يكن يرفض الفكرة.

بل كان يخاف من السؤال الذي لم يُطرح.

بعد انتهاء الجلسة، اقترب منه دانيال.

قال مبتسمًا:

“أشعر أنك غير مقتنع.”

أجابه عبدالله:

“أنا مقتنع بقدرة الإنسان على صنع أدوات عظيمة.”

سأله دانيال:

“إذن أين المشكلة؟”

نظر عبدالله إلى الشاشة التي تعرض صورة المدينة الذكية وقال:

“المشكلة تبدأ عندما تصبح الأداة هي التي تحدد معنى الحياة.”

ابتسم دانيال:

“لكن ماذا لو كانت الأداة أكثر حكمة من الإنسان؟”

صمت عبدالله لحظة.

ثم قال:

“ومن يقرر أنها حكيمة؟”

لم يجب دانيال.

في تلك الليلة، عاد عبدالله إلى الفندق.

وجد ظرفًا أبيض أمام باب غرفته.

لم يكن عليه اسم.

ولا عنوان.

فتح الظرف بحذر.

في داخله كانت هناك صورة قديمة بالأبيض والأسود.

صورة لمقهى فيينا عام 1913.

وخلفها ورقة صغيرة كتب عليها:

“إذا أردت أن تفهم العالم القادم... ابدأ من العالم الذي سبقه.”

تجمد عبدالله للحظة.

فهو يعرف تلك الصورة.

كان قد بحث فيها سنوات.

لكن السؤال الذي أزعجه لم يكن:

من أرسلها؟

بل:

لماذا أرسلت إليه الآن؟

رفع الصورة مرة أخرى.

وفي أسفلها وجد توقيعًا واحدًا فقط:

“البداية لم تكن في المستقبل.”

أطفأ عبدالله الضوء.

لكن للمرة الأولى منذ سنوات، شعر أن بحثه لم يعد مجرد دراسة للتاريخ.

لقد أصبح جزءًا من قصة أكبر.

قصة بدأت قبل قرن.

وربما لم تنتهِ بعد.

الفصل الثاني

مقهى فيينا... حيث بدأت الأسئلة

أعاد عبدالله الصورة إلى الظرف، لكنه لم يستطع النوم.

ظل يتأمل الوجوه الصغيرة المطبوعة بالأبيض والأسود، وكأن أصحابها ما زالوا يجلسون في ذلك المقهى ينتظرون أحدًا ليكمل الحديث الذي بدأ قبل أكثر من قرن.

لم يكن يخيفه ما يعرفه عن الصورة.

بل ما لا يعرفه.

في صباح اليوم التالي، حمل الصورة معه إلى قاعة المؤتمر.

وبينما كان ينتظر بدء الجلسة، جلس إلى جواره المؤرخ اليهودي يعقوب بن شاول.

ما إن لمح الصورة حتى ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:

“ما زلتَ تحتفظ بها؟”

رفع عبدالله رأسه باستغراب.

“إذن تعرفها؟”

أجاب يعقوب:

“لا يعرفها كثيرون... لكنها أصبحت بالنسبة لبعض الباحثين رمزاً لزمينٍ سبق الانفجار.”

سأله عبدالله:

“هل كان هؤلاء يعرفون أنهم سيغيّرون العالم؟”

ابتسم يعقوب.

“نادراً ما يعرف صانعو التاريخ أنهم يصنعونه.”

فتح عبدالله الصورة مرة أخرى.

كان المشهد يبدو عادياً.

مقهى.

طاولات خشبية.

رجال يحتسون القهوة.

صحف متناثرة.

لا جنود.

لا مدافع.

لا دماء.

ومع ذلك...

كان القرن العشرون كله يكاد يختبئ داخل تلك الصورة.

قال يعقوب وهو يشير إلى الصورة:

“قيينا سنة 1913 لم تكن مجرد مدينة.

كانت عاصمة إمبراطورية هرمة، لكنها كانت أيضاً أكبر مختبر للأفكار في أوروبا.”

ثم تابع:

“في شوارعها كان القوميون يحلمون بدول جديدة.

والاشتراكيون يحلمون بثورة عالمية.

والليبراليون يتحدثون عن الإنسان الحديث.

واليهود يناقشون مستقبلهم بعد قرون من الاضطهاد.

والمفكرون يحاولون تفسير الإنسان بطريقة مختلفة.”

سكت قليلاً ثم قال:

“كانت المدينة تمتلئ بالأفكار أكثر مما تمتلئ بالجيش.”

قال عبدالله:

“الغريب أن معظم الناس يتذكرون نتائج القرن العشرين...

ولا يسألون أين بدأت بذوره.”

أوماً يعقوب موافقاً.

“الحروب تبدأ في العقول قبل أن تبدأ في الجبهات.”

فتح عبدالله دفتر ملاحظاته، وكتب:

ليست الإمبراطوريات أول ما يولد.

بل الفكرة.

ثم الكلمة.

ثم المدرسة.

ثم التنظيم.

ثم يأتي التاريخ ليمنحها فرصتها.

وأغلق الدفتر.

بعد دقائق دخل إلى القاعة رجل مسن كان يشارك في المؤتمر.

كان أستاذاً للتاريخ الأوروبي.

وبعد أن رأى الصورة قال:

“أنتم تنظرون إلى الصورة بالطريقة الخطأ.”

التفت الجميع إليه.

قال:

“لا تبحثوا عن ما كان يجلس على الطاولة...”

بل اسألوا:

ما الذي كان يدور في الهواء آنذاك؟”

ساد الصمت.

ثم أكمل:

“كل تلك الشخصيات كانت مختلفة.

بعضها قومي.

وبعضها اشتراكي.

وبعضها ليبرالي.

وبعضها ديني.

وبعضها لا يؤمن بشيء.

لكنها جميعاً كانت تبحث عن إجابة لسؤال واحد:

كيف يجب أن يكون الإنسان الجديد؟”

شعر عبدالله بقشعريرة.

لأن السؤال نفسه كان يُطرح اليوم...

لكن بأدوات مختلفة.

وفي المساء، عاد إلى الفندق، وفتح ملفاً قديماً عنوانه:

“فينا 1913”

قرأ في أول صفحة:

لم تكن فيينا بداية المشروع...

لكنها كانت إحدى اللحظات التي التقت فيها أفكار ستعيد تشكيل القرن كله.

ثم تابع القراءة.

كيف ولدت الحركات القومية.

كيف صعدت الصهيونية السياسية داخل المناخ الأوروبي.

كيف كانت الإمبراطوريات تتداعى.

كيف تحولت الأفكار إلى مؤسسات.

وكيف جاءت الحرب العالمية الأولى لتفتح أبواباً لم يكن أحد يتوقعها.

لم يكن عبدالله يبحث عن مؤامرة تختصر التاريخ.

ولا عن صدفة تفسر كل شيء.

بل كان يبحث عن السنن.

كيف تتحول الفكرة إلى قوة؟

وكيف تتحول القوة إلى مشروع؟

وكيف يختبر التاريخ كل مشروع عندما يمتلك النفوذ؟

أغلق الملف.

ثم نظر إلى صورة المقهى مرة أخيرة.

لم يعد يهمه من جلس هناك.

أصبح السؤال الذي يطارده مختلفاً:

هل كانت فيينا مجرد مدينة احتضنت أفكار عصرها؟

أم أن التاريخ اختارها لتكون نقطة تقاطع بين مشاريع ستتنافس لاحقاً على تشكيل العالم؟

ولم يكن يعلم أن الإجابة عن هذا السؤال ستقوده إلى الوثيقة الأخطر في رحلته.

الفصل الثالث

مقهى فيينا: عندما التقت أفكار القرن

لم يكن عبدالله السالمي يؤمن بأن التاريخ تصنعه المصادفات وحدها.

كان يؤمن أن بعض الأماكن لا تحفظ فقط ما حدث فيها، بل تحفظ الأسئلة التي بقيت معلقة عبر الزمن.

ولهذا، عندما دخل ذلك المقهى القديم في أحد أحياء فيينا، شعر بإحساس غريب.

لم يكن المكان مهيباً كما توقع.

لم يكن قصراً، ولا مركزاً سياسياً، ولا مبنى يحمل علامات القوة.

كان مقهى بسيطاً.

طاولات خشبية قديمة.

رائحة القهوة المختلطة برائحة الكتب.

وصور بالأبيض والأسود لمدينة كانت ذات يوم قلب الإمبراطورية النمساوية المجرية.

لكن عبدالله لم يكن يبحث عن عظمة المكان.

كان يبحث عن أثر الأفكار التي مرت من هنا.

جلس في الزاوية القريبة من النافذة.

المكان نفسه الذي أشار إليه يعقوب بن شاول في لقائهما السابق.

قال له يعقوب يومها:

“إذا أردت أن تفهم القرن العشرين، لا تبدأ من ساحات الحروب... ابدأ من الأماكن التي وُلدت فيها الأسئلة.”

كان عبدالله يحمل معه نسخة من وثيقة قديمة حصل عليها من أرشيف خاص.

لم تكن الوثيقة تحمل خطة سرية لتغيير العالم.

ولم تكن دليلاً على أن التاريخ يُدار بواسطة يد واحدة.

لكنه شعر أنها تحمل شيئاً أخطر:

سؤالاً عن طبيعة الإنسان نفسه.

كيف يمكن لأفكار مختلفة، بل متناقضة، أن تولد في البيئة نفسها؟

كيف يمكن لمدينة واحدة أن تحتضن أحلاماً متعارضة ستغير وجه العالم؟

فتح عبدالله صفحات الوثيقة.

فيينا عام 1913.

عام واحد قبل أن ينكسر عالم كامل.

كانت الإمبراطوريات لا تزال تبدو قوية، لكنها كانت تحمل في داخلها بذور الانهيار.

كانت الشعوب تبحث عن هويات جديدة.

القوميات تصعد.

الأفكار الاشتراكية تنتشر.

العلم يعيد تعريف الإنسان.

والسياسة تبحث عن شكل جديد للعالم.

وفي وسط هذه التحولات، ظهرت أسئلة كثيرة:

هل يبقى العالم القديم؟

هل تنتصر الدولة القومية؟

هل يمكن للإنسان بناء مجتمع أكثر عدلاً؟

وهل يمكن تحويل الهوية الدينية والتاريخية إلى مشروع سياسي؟

بينما كان عبدالله يقرأ، جاءت إليه صحيفة شابة كانت تجلس في الطاولة المقابلة.

كانت تحمل كاميرا صغيرة ودفتر ملاحظات.

قالت:

“أنت عبدالله السالمي؟”

رفع رأسه باستغراب.

“نعم، من أنت؟”

ابتسمت وقالت:

“سارة النجار. صحفية أعمل على تحقيق عن المدن التي غيرت التاريخ. أخبرني أحد الباحثين أنك تدرس فيينا ليس كمدينة، بل كنقطة تحول.”

نظر عبدالله إلى دفترها وقال:

“الصحفيون يبحثون عادة عن الأحداث.”

أجابت:

“وأنت تبحث عن ما قبل الأحداث، أليس كذلك؟”

صمت عبدالله قليلاً.

ثم قال:

“ربما . لأتني أعتقد أن الحرب تبدأ قبل إطلاق أول رصاصة. تبدأ عندما تتغير طريقة تفكير البشر.”

سألته سارة:

“لكن ألا تخشى أن تجعل التاريخ يبدو وكأنه مسار واحد له هدف محدد؟”

كان السؤال بسيطاً، لكنه أصاب نقطة كان عبدالله يخفيها حتى عن نفسه.

فهو طوال سنوات بحثه كان يحاول اكتشاف الأنماط التي تتكرر في التاريخ.

لكنه كان يخاف من شيء آخر:

أن يتحول الباحث عن المعنى إلى شخص يرى المعنى في كل شيء.

قال لها:

“هذا هو الصراع الذي أعيشه.”

استغربت.

“أي صراع؟”

نظر إلى صور المدينة القديمة وقال:

“بين رغبتني في فهم التاريخ، وخوفي من أن أفرض عليه تفسيراً لا يحتمله.”

في المساء، التقى عبدالله بـيعقوب بن شاول في الفندق القديم القريب من وسط المدينة.

كان يعقوب رجلاً هادئاً، يحمل معه كتباً أكثر مما يحمل من الأحكام.

قال عبدالله:

“هناك سؤال يطاردني منذ دخلت هذا المكان.”

قال يعقوب:

“ما هو؟”

أجاب:

“لماذا خرج من هذه المدينة أشخاص وأفكار غيرت العالم بهذه الطريقة المتناقضة؟”

ابتسم يعقوب وقال:

“لأن فيينا كانت مدينة تعيش نهاية عصر وبداية عصر آخر.”

ثم أضاف:

“عندما يشعر الإنسان أن العالم القديم ينهار، يبدأ في البحث عن عالم جديد.”

سأل عبدالله:

“لكن المشكلة ليست في البحث عن عالم جديد، أليس كذلك؟”

نظر إليه يعقوب.

فقال عبدالله:

“المشكلة عندما يعتقد الإنسان أنه يملك الحق في إعادة تشكيل العالم كله وفق رؤيته.”

ساد الصمت للحظة.

ثم قال يعقوب:

“وهذا السؤال لم تجب عنه البشرية حتى اليوم.”

في تلك الليلة عاد عبدالله إلى غرفته.

فتح دفتره وكتب:

“لم تكن فيينا مكان ولادة المشاريع فقط.

كانت مكان ولادة الطموحات البشرية.”

ثم توقف.

وأعاد قراءة الجملة.

شعر أن هناك شيئاً ناقصاً.

كتب بعدها:

“لكن الطموح عندما ينفصل عن التواضع قد يتحول من محاولة إصلاح العالم إلى محاولة امتلاكه.”

في اليوم التالي، ذهب عبدالله وسارة إلى أرشيف المدينة.

كانت سارة تراقبه وهو يقلب الوثائق.

قالت:

“أنت لا تبحث عن أسماء فقط.”

أجاب:

“لا.”

“أبحث عن النمط.”

سألته:

“أي نمط؟”

قال:

“كيف تتحول الفكرة إلى قوة.”

ثم أضاف:

“الأفكار في بدايتها تكون كلمات. ثم تصبح مؤسسات. ثم تصبح أنظمة. وبعد ذلك قد تصبح قوة لا يستطيع أصحابها أنفسهم السيطرة عليها.”

وجدوا عشرات الوثائق.

رسائل.

مذكرات.

خطابات.

كل شخص كان يرى نفسه يبني مستقبلاً أفضل.

وهنا شعرت سارة بشيء جعلها تتوقف عن الكتابة.

قالت:

“الغريب أن الجميع هنا كان يعتقد أنه يعمل من أجل الخير.”

أجاب عبدالله:

“وهذا هو السؤال الأصعب في التاريخ.”

“فالخطر لا يبدأ دائماً عندما يقول الإنسان: أريد الشر.”

“أحياناً يبدأ عندما يقول: أنا وحدي أعرف طريق الخير.”

في نهاية اليوم، وقف عبدالله أمام مبنى قديم في فيينا.

نظر إلى المدينة التي شهدت ولادة أفكار صنعت قرناً كاملاً.

كان يشعر بالإعجاب والخوف في الوقت نفسه.

الإعجاب بقدرة الإنسان على التفكير.

والخوف من قدرة الإنسان على تحويل أفكاره إلى أدوات تغير حياة الملايين.

كتب عبدالله في آخر صفحة من دفتره:

“فينا لم تكن مدينة ولادة الشر.

ولم تكن مدينة ولادة الخير.

كانت مدينة ولادة السؤال.”

ثم كتب:

“ماذا يحدث عندما يمتلك الإنسان القدرة على تغيير العالم قبل أن يمتلك الحكمة التي تمنعه من تدميره؟”

أغلق الدفتر.

لكن عبدالله لم يكن يعلم أن هذا السؤال لن يبقى في فيينا.

بل سيقوده إلى رحلة أطول.

إلى الحروب.

إلى صعود الدول.

إلى صراع الحضارات.

وإلى عالم جديد قد لا يُبنى من الحجارة...

بل من البيانات والمعرفة.

حيث يصبح السؤال الأكبر:

من يملك المعرفة... هل يملك الإنسان؟

الفصل الرابع

سقوط الإمبراطوريات وبداية العالم الجديد

لم يكن عبدالله يرى سقوط الإمبراطوريات مجرد نهاية دول عظيمة.

كان يراه لحظة انتقال.

فالإنسان عبر التاريخ لا يعيش فقط تحت حكم الملوك والجيش، بل يعيش داخل أفكار كبرى تحدد كيف يرى العالم.

وعندما تسقط إمبراطورية، لا يسقط جيشها وحده.

يسقط معها تصور كامل عن النظام، والهوية، والمستقبل.

كان عبدالله يجلس في مكتبه محاطاً بالخرائط القديمة.

أمامه خريطة أوروبا عام 1914.

إمبراطوريات ضخمة كانت تملأ القارة:

الإمبراطورية العثمانية.

الإمبراطورية النمساوية المجرية.

الإمبراطورية الروسية.

الإمبراطورية الألمانية.

وبعد سنوات قليلة، ستتحول هذه الأسماء إلى صفحات في كتب التاريخ.

كتب عبدالله في دفتره:

“أحياناً لا تنتصر المشاريع لأنها أقوى فقط، بل لأن العالم القديم ينهار أمامها.”

بعد أيام من بحثه في أرشيف فيينا، تلقى عبدالله رسالة إلكترونية من يعقوب بن شاول.

كانت الرسالة قصيرة:

“وجدت شيئاً قد يهكم. تعال إلى القدس.”

لم يذكر يعقوب التفاصيل.

وهذا ما أثار فضول عبدالله.

كان يعرف أن يعقوب ليس رجلاً يبحث عن الإثارة.

كان مؤرخاً يؤمن بالوثائق أكثر من النظريات.

وصل عبدالله إلى القدس بعد رحلة طويلة.

في اللقاء الأول، وضع يعقوب أمامه مجموعة من الأوراق.

قال:

“هذه ليست وثائق سرية. لكنها تكشف شيئاً مهماً.”

نظر عبدالله إلى الأوراق.

كانت مراسلات وكتابات تعود إلى بدايات القرن العشرين.

قال يعقوب:

“قبل قيام أي دولة، توجد دائماً مرحلة تسبقها: مرحلة تخیل الدولة.”

سأل عبدالله:

“هل تقصد أن الأفكار تسبق الجغرافيا؟”

أجاب يعقوب:

“نعم. كل مشروع كبير يبدأ في عقول البشر قبل أن يظهر على الخرائط.”

عاد عبدالله يقرأ أحداث الحرب العالمية الأولى بعين مختلفة.

لم يعد يراها فقط حرباً بين دول.

بل لحظة انهيار لنظام عالمي كامل.

فالحرب لم تغير حدود أوروبا فقط.

بل غيرت مفهوم القوة.

خرجت دول منتصرة لكنها منهكة.

وسقطت إمبراطوريات كانت تعتقد أنها ستبقى قروناً.

أما الشرق، فكان يعيش تحولاً تاريخياً عميقاً.

الدولة العثمانية التي حكمت مناطق واسعة لقرون بدأت تفقد نفوذها.

والأراضي التي كانت تحت سلطة واحدة أصبحت تدخل مرحلة جديدة من الصراع السياسي.

وقف عبدالله أمام خريطة الشرق الأوسط.

وقال لنفسه:

“عندما يختفي الحارس القديم، تبدأ القوى الجديدة في رسم الطريق.”

في إحدى الأمسيات، التقى عبدالله بجوناثان ميلر، المفكر المسيحي المتخصص في اللاهوت السياسي.

كان اللقاء في جامعة قديمة.

قال جوناثان:

“كثيرون يرون التاريخ كصراع مصالح فقط، لكن هناك أيضاً أفكار دينية تؤثر في حركة الشعوب.”

سأله عبدالله:

“لكن كيف نميز بين الإيمان الحقيقي واستخدام الدين لتحقيق أهداف سياسية؟”

ابتسم جوناثان.

“هذا السؤال ليس سهلاً. فالدين كان دائماً قوة عظيمة في التاريخ، ويمكن أن يكون مصدر إلهام أو أداة صراع.”

سكت عبدالله للحظة.

ثم قال:

“إن المشكلة ليست في الإيمان، بل في الإنسان عندما يستخدم المقدس لخدمة أهدافه.”

لم يرد جوناثان مباشرة.

لأنه كان يعرف أن السؤال أكبر من شخص واحد.

في تلك الليلة، جلس عبدالله وحده في الفندق.

كان يراجع تسلسل الأحداث.

الحرب.

سقوط الإمبراطوريات.

إعادة رسم الحدود.

ظهور مشاريع قومية جديدة.

تغير موازين القوى.

كان يشعر أن هناك خيطاً يربط بين الأحداث.

لكنه كان حذراً.

فالتاريخ لا يسمح للباحث أن يقفز من النتيجة إلى الاتهام.

كتب:

“ليس كل من استفاد من حدث هو من صنعه.

لكن من يدرس التاريخ يجب أن يسأل دائماً:

من كان مستعداً عندما تغير العالم؟”

بعد أشهر من البحث، بدأ عبدالله يدرك أن القرن العشرين لم يبدأ فعلياً عام 1900.

بل بدأ عندما انهار العالم القديم.

فالحرب العالمية الأولى لم تكن مجرد حرب.

كانت بوابة.

من خلالها دخل العالم عصر الدولة القومية الحديثة، وصعود الأيديولوجيات الكبرى، وتغير العلاقة بين الدين والسياسة والقوة.

لكن أكثر ما أثار قلق عبدالله كان سؤالاً آخر:

إذا كانت الإمبراطوريات القديمة قد سقطت لأنها لم تفهم تغير الزمن...

فهل يمكن أن يسقط العالم الجديد للسبب نفسه؟

أغلق دفتره.

وفي آخر الصفحة كتب:

“كل عصر يبني إمبراطوريته الخاصة.

في الماضي كانت من حجر وحديد.

أما المستقبل...

فقد تكون من أفكار وبيانات وخوارزميات.”

ثم نظر إلى السماء من نافذة الفندق.

ولأول مرة شعر أن قصة القرن العشرين لم تكن النهاية.

بل كانت المقدمة.

الفصل الخامس

الوطن القومي: من الفكرة إلى المشروع

لم يكن عبدالله السالمي يؤمن بأن الأفكار الكبرى تولد في لحظة واحدة.

كان يرى أن التاريخ لا يبدأ عندما تُرفع الرايات، ولا عندما تُعلن الدول عن وجودها، بل قبل ذلك بكثير؛ في عقول أشخاص يبحثون عن إجابات، وفي مكاتب صغيرة تُكتب فيها الكلمات التي قد تتحول بعد عقود إلى أحداث تُغيّر حياة الملايين.

كان يكتب في دفتره:

“كل مشروع كبير يبدأ بفكرة... لكن الاختبار الحقيقي لا يكون في لحظة ولادة الفكرة، بل في الطريق الذي تسلكه عندما تمتلك القدرة على التأثير.”

في مكتبه القديم، بين رفوف الكتب والوثائق التاريخية، فتح عبدالله ملفاً وضع عليه عنواناً:

كيف تتحول الهوية إلى مشروع سياسي؟

لم يكن يبحث عن محاكمة شعب، ولا عن كتابة قصة فيها أبطال مطلقون وأشرار مطلقون.

كان يعرف أن التاريخ أكثر تعقيداً من ذلك.

فالشعوب لا تصنع مشاريعها من فراغ.

وراء كل حركة تاريخية توجد ذاكرة، وتجارب، ومخاوف، وأحلام.

لكن عبدالله كان يبحث عن اللحظة الدقيقة التي تنتقل فيها الهوية من كونها انتماءً ثقافياً ودينيًا إلى مشروع سياسي يسعى إلى إعادة تشكيل الواقع.

فقد حملت شعوب كثيرة هوياتها عبر التاريخ.

وبنت أمم كثيرة دولها انطلاقاً من اللغة أو الثقافة أو الذاكرة المشتركة.

لكن السؤال الذي ظل يلاحقه كان:

متى تتحول ذاكرة الجماعة إلى مشروع لإعادة رسم الجغرافيا والتاريخ؟

في إحدى رحلاته البحثية، التقى عبدالله بـيعقوب بن شاذول، المؤرخ اليهودي الذي أصبح من أكثر الشخصيات التي أثرت في رحلة بحثه.

لم يكن يعقوب رجل شعارات.

كان رجل وثائق.

يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً بداخله رسائل وكتب ومذكرات قديمة.

وضع الصندوق على الطاولة وقال:

“عبدالله، المشكلة في قراءة التاريخ أن الناس غالباً يبدأون من النتيجة.”

“يرون الدولة التي قامت، ولا يرون الخوف والظروف التي سبقت ولادتها.”

نظر عبدالله إلى الوثائق وقال:

“وأنا لا أريد أن أبدأ من النتيجة.”

“أريد أن أفهم البداية.”

ثم توقف وأضاف:

“لكن فهم البداية لا يعني تجاهل السؤال الأصعب: متى يتحول مشروع يبحث عن الحماية إلى مشروع يمتلك القوة؟”

نظر يعقوب إليه بصمت.

ثم قال:

“ربما هنا يبدأ أصعب سؤال في تاريخ كل حركة سياسية.”

فتح يعقوب إحدى الوثائق.

كانت تتحدث عن تجارب طويلة من الاضطهاد والتمييز التي عاشها كثير من اليهود في مناطق مختلفة من أوروبا.

قال يعقوب:

“بالنسبة لكثيرين في ذلك الزمن، لم تكن الفكرة تبدأ من السيطرة، بل من الخوف.”

“الخوف من أن يبقى الإنسان بلا مكان يحميه.”

استمع عبدالله بصمت.

كان يدرك أن التاريخ لا يمكن فهمه بإلغاء مشاعر البشر.

فالأفكار لا تولد دائماً من الطموح.

أحياناً تولد من الألم.

لكن الألم، عندما يتحول إلى مشروع سياسي، يطرح سؤالاً جديداً:

هل يبقى الهدف هو الحماية؟

أم تبدأ القوة بصناعة أهداف جديدة؟

في تلك الليلة، عادت سارة النجار إلى فندقها بعد أن حضرت اللقاء بين عبدالله ويعقوب.

كانت تكتب تحقيقاً عن الأفكار التي غيرت القرن العشرين.

لكنها شعرت أن الحوار الذي دار أمامها لم يكن عن الماضي فقط.

بل عن سؤال يتكرر مع كل مشروع تاريخي.

كتبت في دفترها:

“ربما لا يكون السؤال: كيف تولد الأفكار؟”

“بل: ماذا يحدث لها عندما تخرج من الكتب وتدخل عالم القوة؟”

في اليوم التالي، جلست سارة مع يعقوب.

قالت له:

“أنت ترى أن الصهيونية نشأت من تجربة تاريخية مؤلمة، وهذا جزء مهم لفهمها.”

ثم توقفت قليلاً وقالت:

“لكن عبدالله يطرح سؤالاً آخر.”

نظر إليها يعقوب.

قالت:

“متى يتحول مشروع حماية الهوية إلى مشروع قوة؟”

ساد الصمت للحظات.

نظر يعقوب إلى الوثائق أمامه، ثم قال:

“ربما هذا هو أصعب سؤال تواجهه كل حركة تاريخية تصل إلى السلطة.”

“فالاختبار الحقيقي لأي مشروع لا يكون فقط في سبب ولادته، بل في كيفية استخدامه للقوة عندما يمتلكها.”

مع مرور الأيام، بدأ عبدالله يتتبع التحولات الكبرى التي شهدتها أوروبا في القرن التاسع عشر.

كان يرى أن الصهيونية السياسية لم تظهر خارج سياق عصرها.

لقد ولدت في زمن صعود القوميات الأوروبية، وانتهيار الإمبراطوريات القديمة، وانتشار فكرة أن لكل جماعة قومية الحق في أن يكون لها كيان سياسي.

كتب عبدالله:

“لم تكن الصهيونية السياسية ظاهرة منفصلة عن عصر القوميات.”

“لقد استخدمت أدوات عصرها: التنظيم، والمؤسسات، والعمل السياسي.”

ثم أضاف:

“لكنها حملت سؤالاً خاصاً بها: هل يمكن لشعب موزع عبر العالم أن يبني وطناً قومياً في أرض ترتبط بذاكرته التاريخية، وفي الوقت نفسه يتعامل مع واقع الشعوب الموجودة على تلك الأرض؟”

في أحد اللقاءات، جلس عبدالله مع مايكل أندرسون، الإستراتيجي الأمريكي.

قال مايكل:

“التاريخ لا تصنعه الأفكار وحدها.”

“الأفكار تحتاج إلى مؤسسات.”

سأله عبدالله:

“وهل كل فكرة تمتلك فرصة للتحويل إلى قوة؟”

أجاب مايكل:

“لا.”

“التاريخ غالباً يكافئ من يستطيع التنظيم، وبناء الشبكات، واستثمار اللحظة المناسبة.”

بقيت كلمات مايكل في ذهن عبدالله.

فقد أدرك أن قوة أي مشروع لا تأتي من الفكرة وحدها.

بل من القدرة على تحويل الفكرة إلى واقع:

مؤسسات.

تنظيم.

قيادة.

وعلاقات سياسية.

في نهاية الفصل، وقف عبدالله أمام نافذة منزله يتأمل المدينة.

كان يرى العالم الحديث يتحرك بسرعة.

أفكار قديمة تعود بأشكال جديدة.

قوى تصعد.

وقوى تسقط.

ومشاريع تبدأ صغيرة ثم تتحول إلى قوى تاريخية.

فتح دفتره وكتب:

“الوطن القومي لم يكن مجرد إعلان سياسي.”

“كان مرحلة في رحلة طويلة تنتقل فيها الفكرة من الذاكرة إلى المشروع، ومن المشروع إلى القوة.”

ثم توقف طويلاً.

وأضاف:

“لكن التاريخ لا يطرح السؤال فقط: كيف تولد المشاريع؟”

“بل يطرح السؤال الأصعب:

ماذا تصبح المشاريع عندما تمتلك القدرة على تغيير العالم؟”

أغلق عبدالله الدفتر.

وكان يعلم أن المرحلة القادمة لن تكون عن ولادة الفكرة فقط...

بل عن اللحظة التي بدأت فيها الفكرة تبحث عن طريق للوصول إلى الواقع.

الفصل السادس

الوعد الذي غيّر التاريخ

لم يكن عبدالله يؤمن بأن التاريخ يتغير في يوم واحد.

كان يرى أن اللحظات الكبرى التي تبدو في الكتب كأنها حدث منفرد، تكون في الحقيقة نتيجة سنوات طويلة من التراكمات الصامتة.

كان يقول:

“القرار الذي يغير وجه العالم لا يولد عندما يُكتب على الورق، بل عندما تصبح الظروف مستعدة لاستقباله.”

ولهذا، عندما فتح ملف عام 1917، لم ينظر إلى الوثيقة باعتبارها مجرد رسالة سياسية، بل باعتبارها لحظة التقاء بين عالم قديم كان ينهار، وعالم جديد كان يبحث عن شكل مختلف.

جلس عبدالله في مكتبه أمام نسخة من الوثيقة.

كان التاريخ أمامه يتحرك بين السطور:

حرب عالمية.

إمبراطوريات تتهاوى.

شعوب تبحث عن مستقبلها.

وقوى كبرى تعيد رسم خريطة العالم.

كتب في مذكرته:

“لفهم الوعد، لا يكفي أن نسأل: ماذا كُتب؟ بل يجب أن نسأل: لماذا كُتب في ذلك الوقت بالذات؟”

في اللقاء التالي مع يعقوب بن شاول، وضع عبدالله الوثيقة بينهما.

نظر يعقوب إليها طويلاً.

قال:

“بالنسبة لكثيرين، كانت هذه اللحظة بداية مرحلة جديدة. للمؤيدين لها كانت خطوة نحو تحقيق حلم تاريخي. وللمعارضين كانت نقطة تحول غيرت مصير شعب آخر يعيش على هذه الأرض.”

سأل عبدالله:

“وهل يمكن لوثيقة واحدة أن تصنع التاريخ؟”

ابتسم يعقوب.

“لا. الوثائق لا تصنع التاريخ وحدها. لكنها تكشف اللحظة التي تلتقي فيها الأفكار بالمصالح.”

بقيت الجملة في ذهن عبدالله.

فقد كان يعرف أن التاريخ لا يتحرك فقط بالإيمان بالأفكار، ولا بالمصالح وحدها.

بل عندما يلتقي الاثنان.

عاد عبدالله إلى دراسة السنوات التي سبقت الوعد.

لم يرَ فلسطين في تلك الفترة كجزيرة منفصلة عن العالم.

كانت جزءًا من صراع أكبر.

الإمبراطورية العثمانية كانت تواجه ضغوطًا داخلية وخارجية.

أوروبا كانت تعيش سباق النفوذ.

والحرب العالمية الأولى كانت تعيد ترتيب موازين القوى.

كتب عبدالله:

“عندما تسقط إمبراطورية، لا يختفي الفراغ. دائمًا هناك من يحاول أن يملأه.”

كان هذا القانون يتكرر عبر التاريخ.

سقطت إمبراطوريات.

وظهرت قوى جديدة.

وتغيرت خرائط.

لكن السؤال الذي كان يلاحقه:

“من يملك القدرة على تحويل الفراغ التاريخي إلى فرصة؟”

في أحد اللقاءات، تحدث مايكل أندرسون، الإستراتيجي الأمريكي، عن طبيعة السياسة الدولية.

قال:

“الدول لا تتحرك في التاريخ بناءً على الأخلاق فقط. هناك أمن، ومصالح، وموازين قوى.”

رد عبدالله:

“لكن عندما تتحول المصالح إلى قرارات تغير حياة شعوب كاملة، ألا يصبح السؤال الأخلاقي جزءًا من التاريخ؟”

صمت مايكل للحظة.

ثم قال:

“ربما المشكلة ليست في وجود المصالح. المشكلة فيمن يملك القدرة على صياغتها.”

سجل عبدالله هذه العبارة.

فقد رأى فيها مفتاحاً لفهم كثير من الأحداث.

ليست كل الأفكار تنتصر لأنها أكثر عدلاً.

وليست كل المشاريع تستمر لأنها أقوى فقط.

أحياناً تنتصر المشاريع التي تمتلك رؤية طويلة المدى، وتنظيماً قادراً على استثمار اللحظات الحاسمة.

في تلك الليلة، عاد عبدالله إلى دراسته عن الحضارات.

قرأ عن سقوط روما.

عن صعود الإمبراطوريات الأوروبية.

عن ولادة الدول الحديثة.

ثم فتح القرآن، وتوقف عند قصص الأقوام التي امتلكت القوة.

لم يكن يرى القصص القرآنية مجرد أحداث من الماضي.

كان يراها قوانين عن الإنسان.

القوة عندما تنفصل عن المسؤولية.

العلم عندما ينفصل عن الحكمة.

القدرة عندما تتحول إلى غرور.

كتب:

“المشكلة ليست أن الإنسان يبني، فالبناء جزء من الحضارة. المشكلة أن ينسى حدود الإنسان، فيظن أن ما يستطيع فعله يعني أنه يملك الحق في فعله.”

بعد أيام، تلقى عبدالله رسالة من زميل قديم يدعوه إلى مؤتمر حول مستقبل النظام العالمي.

كان عنوان المؤتمر:

“من عصر الدول إلى عصر الأنظمة العالمية.”

توقف عبدالله عند العنوان.

شعر أن هناك خيطاً يربط الماضي بالمستقبل.

قبل قرن، كانت الأفكار تبحث عن وطن.

واليوم، كانت الأفكار تبحث عن نظام عالمي.

كتب في دفتره:

“ربما لا تكمن أهمية الأحداث التاريخية فقط فيما حققته في زمانها، بل في المسارات التي فتحتها للأجيال القادمة.”

ثم أغلق الملف.

كان يعلم أن الوعد لم يكن نهاية القصة.

بل كان بداية مرحلة جديدة.

مرحلة ستكشف كيف تنتقل الأفكار من الورق إلى الواقع.

وكيف يمكن للحظة واحدة في التاريخ أن تغير حياة ملايين البشر.

لكن السؤال الأصعب لم يكن قد جاء بعد:

عندما تتحول الفكرة إلى قوة... هل تبقى كما كانت عندما كانت مجرد حلم؟

الفصل السابع

الحرب الكبرى وولادة النظام الدولي

لم يكن عبدالله يرى الحرب مجرد مواجهة بين جيوش.

كان يرى أن الحروب الكبرى لا تنتهي عندما تتوقف المدافع، بل تبدأ بعدها مرحلة جديدة من إعادة تشكيل العالم.

كان يكتب في دفتره:

“الحرب ليست فقط معركة على الأرض... إنها لحظة يعاد فيها توزيع القوة، وتولد فيها أفكار وأنظمة لم تكن ممكنة قبلها.”

جلس عبدالله في قاعة الأرشيف القديمة، أمام خرائط أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى.

كانت الخريطة تبدو له كأنها صورة لعالم يحتضر.

إمبراطوريات ضخمة.

حدود رسمتها قرون من الصراعات.

شعوب متعددة تحت رايات واحدة.

ثم جاءت الحرب...

وكأن التاريخ قرر أن يفتح صفحة جديدة بالقوة.

في بداية القرن العشرين، كان العالم يعيش وهم الاستقرار.

كانت الإمبراطوريات الكبرى تظن أن قوتها ستبقيها إلى الأبد.

الإمبراطورية العثمانية.

الإمبراطورية النمساوية المجرية.

الإمبراطورية الروسية.

والإمبراطورية البريطانية التي كانت تمتد عبر قارات.

لكن عبدالله كان يعرف من دراسته للحضارات أن القوة التي لا تتجدد تصبح عبئاً على أصحابها.

كتب:

“كل إمبراطورية تحمل داخلها بذور صعودها وبذور سقوطها.”

كانت الحرب العالمية الأولى أكثر من صراع بين دول.

كانت صداماً بين عالم قديم وعالم جديد.

عالم تحكمه العائلات الملكية والإمبراطوريات.

وعالم جديد ستظهر فيه القوميات والأيديولوجيات والدول الحديثة.

في إحدى جلساته مع يعقوب بن شاول، قال عبدالله:

“أكثر ما يلفتني في هذه الحرب ليس فقط من انتصر ومن خسر، بل الفراغ الذي تركته بعد سقوط الإمبراطوريات.”

أجابه يعقوب:

“التاريخ لا يحب الفراغ. عندما ينهار نظام، تأتي قوى جديدة لتقدم رؤيتها.”

سأل عبدالله:

“وهل تكون الرؤية الجديدة دائماً أكثر عدلاً من النظام القديم؟”

نظر يعقوب إلى النافذة وقال:

“ليس بالضرورة. أحياناً يسقط نظام لأنه فشل، ثم يأتي نظام آخر يحمل مشكلات جديدة.”

تذكر عبدالله هذه العبارة طويلاً.

فقد كان يرى أن التاريخ لا يتحرك دائماً من الشر إلى الخير، بل من مرحلة إلى مرحلة.

والإنسان هو الذي يقرر كيف يستخدم الفرص التي تفتحها التحولات.

عاد عبدالله إلى دراسة الشرق الأوسط بعد الحرب.

كانت المنطقة التي حكمتها الدولة العثمانية لقرون تدخل عصرًا جديدًا.

حدود جديدة.

اتفاقيات جديدة.

قوى دولية تبحث عن مصالحها.

وكانت فلسطين في قلب هذه التحولات.

لم تكن القضية منفصلة عن سقوط الإمبراطورية العثمانية، بل كانت جزءًا من عملية أكبر: إعادة رسم خريطة العالم.

كتب عبدالله:

“عندما تتغير خرائط القوة، لا تتغير الجغرافيا فقط، بل تتغير مصائر الشعوب.”

كان يتأمل كيف أن الأفكار التي كانت قبل سنوات مجرد نقاشات سياسية، أصبحت فجأة أمام أبواب التنفيذ.

فالفكرة تحتاج إلى لحظة تاريخية.

واللحظة التاريخية تحتاج إلى فراغ.

والفراغ يحتاج إلى من يملك القدرة على ملئه.

في أحد المؤتمرات، التقى عبدالله بجوناثان ميلر، المفكر المسيحي الصهيوني.

كان جوناثان ينظر إلى الأحداث من زاوية دينية مختلفة.

قال:

“هناك من يرى أن التاريخ مجرد صراع مصالح، لكن هناك من يؤمن أن وراء التاريخ معنى أكبر.”

سأله عبدالله:

“لكن كيف نميز بين الإيمان الذي يمنح الإنسان الأمل، واستخدام الإيمان لتبرير مشاريع سياسية؟”

لم يجب جوناثان مباشرة.

قال:

“ربما هذا هو السؤال الأصعب في كل العصور.”

أدرك عبدالله أن التاريخ لا يُكتب فقط في مكاتب السياسيين.

بل أيضًا في عقول البشر، وفي تفسيرهم للرسالة والدين والمصير.

مع نهاية الحرب العالمية الأولى، كان العالم مختلفًا.

اختفت إمبراطوريات.

ظهرت دول جديدة.

تغير ميزان القوى.

وبدأت الولايات المتحدة تظهر كلاعب عالمي جديد.

لكن عبدالله كان يرى أن أهم ما حدث لم يكن سقوط الإمبراطوريات فقط.

بل ولادة فكرة جديدة:

أن العالم يمكن أن يُدار عبر أنظمة دولية تتجاوز حدود الدول التقليدية.

منظمات.

معاهدات.

تحالفات.

وقواعد جديدة للنظام العالمي.

كتب عبدالله:

“في الماضي كانت الإمبراطوريات تحكم بالسيف. أما العالم الجديد فسيحكم بالمؤسسات والقوانين والشبكات.”

في آخر الليل، أغلق عبدالله ملف الحرب العالمية الأولى.

لكنه لم يغلق السؤال.

فقد أدرك أن الحرب لم تكن النهاية.

كانت بداية سلسلة طويلة من التحولات.

الحرب خلقت نظامًا جديدًا.

لكن النظام الجديد حمل داخله تناقضاته.

فهو تحدث عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، لكنه ترك شعوبًا أخرى أمام مستقبل مجهول.

وتحدث عن السلام، لكنه مهد لصراعات جديدة.

كتب عبدالله آخر سطر في الصفحة:

“أحياناً لا يكون السؤال: من انتصر في الحرب؟”

“بل: من استطاع أن يحول نتائج الحرب إلى مستقبل؟”

ثم نظر إلى الوثائق القادمة من القرن الماضي.

كان يشعر أن القصة لم تبدأ بعد.

فبعد سقوط الإمبراطوريات...

جاء وقت بناء المشاريع.

الفصل الثامن

الآلم الذي أصبح قوة سياسية

لم يكن عبدالله السالمي يرى التاريخ كسلسلة من الحروب والمعاهدات فقط.

كان يؤمن أن وراء كل تحول كبير في التاريخ شعوراً إنسانياً عميقاً.

الخوف.

الآلم.

الرغبة في الأمان.

والبحث عن معنى بعد المأساة.

فالأحداث، في نظره، لا تصنع التاريخ وحدها، بل المشاعر التي تبقى بعدها.

كان يكتب في دفتره:

“قد ينتهي الحدث في يوم واحد، لكن أثره قد يعيش في ذاكرة أجيال.”

ثم يضيف:

“فالإنسان لا يتحرك فقط بما حدث له، بل بما يخشى أن يحدث مرة أخرى.”

في مكتبه القديم، وبين جدران امتلأت بالكتب والوثائق، كان عبدالله يراجع شهادات الناجين من الحروب الأوروبية، ومذكرات الشعوب التي عاشت الاضطهاد والتهجير.

كان يشعر بثقل الكلمات التي يقرأها.

لم يكن يقرأ أرقاماً فقط.

كان يقرأ حياة بشر.

أحلامًا انكسرت.

عائلات تفرقت.

وأجيالاً حملت جراح آبائها.

وهنا كان صراعه الداخلي يظهر.

فهو كباحث يريد أن يفهم كيف تتحول المآسي إلى قوى سياسية.

لكن كإنسان كان يخشى أن تتحول معاناة البشر إلى أدوات في صراعات جديدة.

كان يسأل نفسه:

“هل يمكن للإنسان أن يحفظ ذاكرة الألم دون أن يصبح أسيرًا لها؟”

في الطرف الآخر من القصة، كان يعقوب بن شاولو يجلس في قاعة أرشيف قديمة في القدس.

كانت الأوراق القديمة أمامه تحمل تاريخ عائلته وتاريخ شعبه.

لم يكن يعقوب سياسيًا.

ولم يكن رجل شعارات.

كان مؤرخًا عاشقًا للتفاصيل.

كان يؤمن أن الخطأ الأكبر في قراءة التاريخ هو اختصار حياة ملايين البشر في موقف سياسي واحد.

بالنسبة إليه، كانت الصهيونية تجربة تاريخية معقدة؛ ولدت في عصر القوميات الأوروبية، وتأثرت بتجارب طويلة من الخوف والاضطهاد والبحث عن مكان آمن.

كان يعقوب يتذكر قصصًا سمعها من والده عن عائلات عاشت القلق من المستقبل.

وكان يعلم أن الإنسان الذي يشعر أنه مهدد يبحث دائمًا عن ملجأ.

لكن مع مرور السنوات، بدأ يواجه سؤالاً لم يكن سهلًا عليه.

هل يمكن للخوف القديم أن يستمر في توجيه قرارات القوة الجديدة؟

في أحد اللقاءات، جلس عبدالله مع يعقوب في مقهى هادئ.

كان الحوار بينهما مختلفًا هذه المرة.

لم يبدأ بالتاريخ.

بل بدأ بالإنسان.

قال يعقوب:

“هناك شيء لا يفهمه كثيرون. عندما يعيش الإنسان قروناً وهو يشعر أنه بلا حماية، تصبح فكرة الأمان جزءاً من هويته.”

استمع عبدالله ثم قال:

“وأنا أفهم ذلك. لكن التاريخ يضع أماننا سؤالاً آخر.”

نظر إليه يعقوب.

قال عبدالله:

“ماذا يحدث عندما ينتقل الإنسان من موقع الخوف إلى موقع القوة؟”

صمت يعقوب.

فأكمل عبدالله:

“هل يستخدم القوة حتى يمنع تكرار الظلم؟”

“أم يستخدمها حتى يضمن ألا يعود ضعيفاً مرة أخرى، حتى لو أصبح الآخرون هم من يدفعون الثمن؟”

في تلك اللحظة دخلت سارة النجار الحوار.

كانت تراقب النقاش منذ البداية.

لم تكن تريد أن تكون قاضية على أحد.

كانت تريد أن تفهم.

قالت:

“أشعر أن التاريخ مليء بالضحايا.”

ثم توقفت قليلاً.

“لكن هل كل ضحية تصبح عادلة عندما تمتلك القوة؟”

ساد الصمت للحظة.

نظر عبدالله إليها.

كان يعرف أن سؤالها لم يكن موجهاً إلى شعب بعينه.

كان سؤالاً عن طبيعة الإنسان.

قال:

“هذه هي المشكلة التي تتكرر في التاريخ.”

“الإنسان يتذكر ظلمه بسهولة.”

“لكنه أحياناً ينسى مسؤوليته عندما يصبح قوياً.”

كانت هذه الجملة بقيت في ذهن يعقوب طويلاً.

لأنه لم يسمع فيها اتهاماً.

بل سؤالاً يخص الجميع.

فهو نفسه كان يخشى من تبسيط التاريخ.

كان يعرف أن الشعوب ليست كائنات واحدة التفكير.

في كل مجتمع يوجد من يبحث عن العدالة.

ومن يبحث عن القوة.

ومن يخاف.

ومن يحلم.

والتاريخ غالباً يكتب عندما تنتصر رؤية على أخرى.

عاد عبدالله في تلك الليلة إلى منزله.

فتح دفتره وكتب:

“الآلم يمكن أن يكون بداية بناء الإنسان.”

ثم توقف.

وأضاف:

“لكن الآلم نفسه يمكن أن يصبح خطراً عندما يتحول إلى مبرر دائم لامتلاك الآخرين.”

تذكر عبدالله حضارات كثيرة.

إمبراطوريات بدأت من شعور بالخطر.

شعوب رفعت شعار الدفاع عن نفسها.

قوى قالت إنها تتحرك لمنع الفوضى.

لكن بعض هذه القوى، مع مرور الزمن، تحولت إلى أنظمة تبحث عن التوسع والسيطرة.

لم يكن السؤال:

هل كان الألم حقيقياً؟

بل:

ماذا فعل الإنسان بهذا الألم؟

في نهاية الفصل، وقف عبدالله أمام نافذة مكتبه.

كانت أضواء المدينة الحديثة تملأ المكان.

فكر في القرن العشرين كله.

قرن خرجت منه دول جديدة.

وسقطت إمبراطوريات.

وتغيرت موازين القوى.

وكان يدرك أن الألم كان أحد المحركات الكبرى للتاريخ.

لكنه كتب في آخر الصفحة:

“كل مشروع يبدأ بسؤال: كيف نحتمي أنفسنا؟”

ثم أضاف:

“لكن السؤال الأصعب:

كيف نضمن ألا نصبح يوماً الشيء الذي كنا نخاف منه؟”

أغلق عبدالله الدفتر.

لكنه كان يعلم أن السؤال لم ينتهِ.

ففي الفصول القادمة لن يكون الصراع فقط حول الماضي.

بل حول المستقبل.

حول من يملك الحق في تشكيل العالم الجديد.

وحول الإنسان نفسه:

هل يصنع مستقبلاً أكثر حكمة؟

أم يعيد أخطاء الماضي بأدوات أكثر قوة؟

هذا الفصل يحمل فكرة قوية، لكن يمكن رفع مستواه الروائي بإعادة ترتيب الأحداث بحيث تبدأ الحبكة أولاً، ثم ينتقل السرد إلى التحليل التاريخي. بذلك يشعر القارئ بأنه يقرأ رواية يقودها الحدث، لا دراسة تتخللها مشاهد.

أقترح أيضاً تقليل بعض التكرار، وربط حادثة محاولة الاغتيال بعنوان الفصل، بحيث تصبح نقطة التحول التي تدفع عبدالله إلى البحث في السؤال المركزي: كيف تتحول الأفكار إلى دول، ثم إلى نفوذ؟

إليك الصياغة المقترحة:

الفصل التاسع

الدولة التي خرجت من الفكرة

لم يكن عبدالله السالمي يتخيل أن أخطر ما قد يواجهه في حياته لن يكون بسبب سلاح، بل بسبب فكرة.

أمضى سنوات طويلة بين الوثائق والمخطوطات، يكتب الدراسات ويشارك في المؤتمرات، مقتنعاً بأن ما ينجزه لن يتجاوز حدود الجامعات ومراكز الأبحاث. كان يرى نفسه باحثاً يضيف لبنة صغيرة إلى صرح المعرفة، لا أكثر.

لكن الأشهر الأخيرة غيرت كل شيء.

انتشرت إحدى محاضراته على نحو لم يكن يتوقعه. تداولتها وسائل الإعلام ومنصات التواصل، وترجمت مقالاته إلى عدة لغات، وأصبحت أفكاره مادة للنقاش في الجامعات ومراكز الدراسات. لم يعد اسمه حكراً على الباحثين، بل بدأ يصل إلى جمهور واسع، يحمل أسئلته إلى فضاءات لم يكن يظن أنه سيدخلها.

ومع اتساع دائرة الاهتمام، تغير شيء آخر.

لم تعد الاعتراضات تناقش أفكاره، بل بدأت تطعن في شخصه.

حملات تشويه.

اتهامات متناقضة.

مقالات تهاجم نياته بدلاً من حججه.

وأصدقاء ابتعدوا بصمت، وآخرون أصبحوا يترددون في الظهور معه.

في البداية، أقنع نفسه بأن هذا هو الثمن الطبيعي لكل فكرة تثير الجدل.

لكن الأحداث لم تتوقف عند حدود الكلمات.

في إحدى الليالي، وبعد انتهاء محاضرة عن تحولات الفكر السياسي في القرن العشرين، كان عائداً إلى منزله حين اندفعت سيارة من شارع جانبي بسرعة غير مألوفة، متجهة نحوه مباشرة.

لم يكن أمامه وقت للتفكير.

لحظة خاطفة...

ثم ارتطام عنيف.

...

حين فتح عينيه، كان السقف الأبيض لغرفة المستشفى أول ما رآه.

أخبرته الشرطة أن التحقيق ما زال مستمراً، وأنه لا توجد أدلة قاطعة تثبت إن كان ما جرى حادثاً عارضاً أم محاولة متعمدة.

لكن السؤال الذي استقر في ذهنه لم يكن:

من الذي حاول قتلي؟

بل:

هل أصبحت الأفكار التي أكتبها مؤثرة إلى الحد الذي يجعل إسكات صاحبها أسهل من مناقشته؟

في اليوم التالي، جلس يعقوب بن شاول إلى جوار سريره. ظل صامتاً لبرهة، ثم قال بصوت هادئ:

“ليس كل فكر جديد يثير الخوف... لكن الفكرة التي تبدأ بتغيير عقول الناس تصبح مصدر قلق لمن اعتادوا بقاء الأمور كما هي.”

بقيت العبارة تتردد في ذهن عبدالله طويلاً.

وفي تلك الليلة، أدرك أن معركته لم تعد مع الوثائق...

بل مع الوعي.

بعد أسابيع، عاد إلى مكتبه.

كانت الخرائط القديمة تغطي الطاولة، وإلى جانبها مذكرات قادة وسياسيين، وكتب تتناول نشأة الدول وتحولاتها.

أخذ يتأملها طويلاً، ثم كتب في دفتره:

“الدول لا تولد يوم تُرفع الرايات، ولا يوم تُرسم الحدود.

إنها تولد أولاً في العقول.”

كان يؤمن أن كل دولة عظيمة بدأت ذات يوم فكرةً آمن بها أصحابها قبل أن يراها العالم واقعاً.

لكن السؤال الذي شغله لم يكن كيف تولد الأفكار...

بل كيف تتحول إلى قوة تصنع التاريخ.

في عام 1948، كان العالم يخرج من أهوال حرب عالمية غيرت موازين القوة، وأسقطت إمبراطوريات، وفتحت الباب أمام نظام دولي جديد.

وفي تلك اللحظة، لم تكن فلسطين مجرد بقعة تتبدل فيها الحدود.

كانت نقطة التقاء لذاكرات متصارعة، ومشروعات سياسية، ومصالح دولية، وطموحات قومية، وأحلام متناقضة.

تأمل عبدالله خريطة تعود إلى تلك المرحلة، ثم دوّن:

“التاريخ لا يسأل فقط: من أعلن قيام الدولة؟

بل يسأل أيضاً: كيف أصبحت الفكرة جاهزة عندما جاءت لحظة التنفيذ؟”

في إحدى جلساته مع يعقوب، قال الأخير:

“إذا أردت أن تفهم تلك المرحلة، فلا تقرأ التاريخ بلغة القوة وحدها، بل بلغة الخوف أيضاً.”

هز عبدالله رأسه موافقاً.

ثم قال:

“الخوف يصنع كثيراً من القرارات... لكن التاريخ يطرح سؤالاً آخر.

ماذا يحدث عندما يتحول خوف الأمس إلى قوة اليوم؟

وهل تستطيع الدولة التي وُلدت من معاناة أن تمنع نفسها من صناعة معاناة جديدة؟”

ساد الصمت.

لم يكن لأن أحدهما امتلك الجواب، بل لأن السؤال كان أكبر من أن يُحسم في حوار.

واصل عبدالله بحثه.

ورأى أن إعلان قيام أي دولة ليس سوى اللحظة الأخيرة في رحلة بدأت قبل ذلك بسنوات طويلة.

فوراء كل إعلان، كانت هناك مؤسسات تُبنى، وشبكات دبلوماسية تتشكل، وهوية جماعية تُصاغ، واقتصاد يُهيأ، ورؤية بعيدة المدى تتحول تدريجياً إلى واقع.

كتب في مذكراته:

“الأفكار وحدها لا تغير العالم.

ما يغيره هو قدرتها على أن تتحول إلى مؤسسات.”

ثم أضاف:

“كم من فكرة عظيمة ماتت لأنها بقيت حلمًا؟

وكم من مشروع صغير غيّر التاريخ لأنه عرف كيف ينظم نفسه؟”

لكن هذا لم يكن نهاية البحث.

فكل ولادة سياسية تحمل معها سؤالاً أخلاقياً.

عندما يتحقق حلم جماعة، ماذا يحدث لأحلام الجماعات الأخرى؟

وعندما يستعيد شعب وطناً يراه حقاً له، كيف يرى الشعب الآخر الأرض نفسها؟

أدرك عبدالله أن التاريخ لا يُقرأ من ذاكرة واحدة.

لكل شعب ذاكرته.

ولكل ذاكرة جراحها.

وفي إحدى الليالي، أغلق كتب التاريخ الحديث، وعاد إلى دراسة الحضارات القديمة.

وجد أن المشهد يتكرر.

الرومان.

الفرعنة.

الإمبراطوريات الأوروبية.

كلها بدأت بفكرة، ثم تحولت إلى قوة، ثم وقفت أمام الاختبار نفسه.

فكتب:

“ليست المشكلة في قيام الدول، فقيامها سنة من سنن التاريخ.

المشكلة تبدأ عندما تظن الدولة أنها أصبحت فوق التاريخ، وأن قوتها تمنحها حق إعادة تشكيل العالم وفق إرادتها.”

كان القرن العشرون يقترب من منتصفه، بينما كانت خرائط النفوذ العالمي تعاد صياغتها من جديد.

ولم يعد الصراع يدور على الأرض وحدها.

بل على الرواية.

وعلى الوعي.

وعلى من يملك القدرة على إقناع العالم بحكايته.

أما عبدالله، فقد أصبح مقتنعاً بأن المعركة الحقيقية لا تدور بين الدول فقط.

بل داخل الإنسان نفسه.

بين حاجته إلى الأمان...

ورغبته في السيطرة.

وفي نهاية ذلك اليوم، أغلق دفتره بعدما كتب:

“الدولة تبدأ فكرةً في عقل الإنسان، لكنها تكشف حقيقتها عندما تمتلك القوة.

فالسؤال ليس: كيف تولد الدول؟

بل:

ماذا تفعل حين تصبح قوية؟”

رفع رأسه نحو النافذة.

كان يشعر أن هذا السؤال لن يقوده إلى فهم الماضي فحسب...

بل إلى كشف المرحلة التالية من رحلته:

كيف انتقلت الدولة الجديدة من مرحلة البقاء...

إلى مرحلة بناء النفوذ.

الفصل العاشر

الأمة التي فقدت دورها الحضاري

في تلك الليلة، بقي عبدالله السالمي جالساً أمام نافذة مكتبه بعد أن أغلق دفتره.

كانت أضواء المدينة تمتد أمامه مثل شبكة من الأسئلة.

شعر أن شيئاً ما لم يكتمل بعد.

فالحادث الذي تعرض له لم يكن مجرد لحظة عابرة في حياته، بل بدا وكأنه باب فتح أمام طريق جديد لم يكن يعرف نهايته.

عند منتصف الليل تقريباً، قطع هدوء المكان صوت الهاتف.

نظر إلى الشاشة.

رقم غير محفوظ.

تردد للحظات.

ثم أجاب.

قال:

“نعم؟”

ساد صمت طويل في الطرف الآخر.

ثم جاء صوت رجل هادئ، يحمل ثقة أكثر مما يحمل غموضاً.

قال:

“الدكتور عبدالله السالمي؟”

تغيرت ملامح عبدالله.

أجاب بحذر:

“نعم... من معي؟”

لم يجب الرجل مباشرة.

بل قال:

“كنت أتابع أبحاثك منذ سنوات.”

صمت عبدالله.

ثم قال:

“ومن أنت؟”

جاءه الرد:

“شخص يعرف أن بعض الأسئلة أخطر من بعض الإجابات.”

لم يعلق عبدالله.

فأكمل الرجل:

“أنت تبحث عن كيفية ولادة الدول... لكنك لم تصل بعد إلى السؤال الأهم.”

سأل عبدالله:

“وما هو؟”

قال الصوت:

“من يصنع الظروف التي تجعل بعض الأفكار تتحول إلى واقع؟”

شعر عبدالله أن الرجل لا يتحدث عن التاريخ فقط.

بل عن شيء أبعد.

قال:

“إذا كنت تعرف شيئاً، فلماذا لا تقول اسمك؟”

جاءت ضحكة قصيرة.

ثم قال:

“لأن الأسماء أحياناً تجعل الحقيقة أصغر من حجمها.”

توقف قليلاً.

ثم أضاف:

“لدي وثائق قد تغير الطريقة التي ننظر بها إلى القرن العشرين.”

انتبه عبدالله.

قال:

“أي وثائق؟”

أجاب الرجل:

“وثائق عن أفكار سبقت الأحداث... وعن أشخاص أدركوا أن العالم لا يتغير فقط بالحروب، بل بمن يملك القدرة على صياغة الرواية.”

ثم انقطع الاتصال.

بقي عبدالله ممسكاً بالهاتف.

لم يكن السؤال الذي شغله:

من هذا الرجل؟

بل:

كيف عرف أنني أبحث عن هذا الطريق؟

فتح دفتره مرة أخرى.

وكتب:

“أحياناً لا تجد التاريخ...”

بل التاريخ هو الذي يجده.

في الأيام التالية، عاد عبدالله إلى أبحاثه، لكنه لم يعد يقرأ التاريخ بالطريقة نفسها.

كان ينظر إلى صعود الدول وسقوطها من زاوية مختلفة.

لم يكن يرى سقوط الأمم في لحظة الهزيمة فقط.

كان يؤمن أن السقوط يبدأ قبل ذلك بكثير.

يبدأ عندما تفقد الأمة السؤال الذي يمنح وجودها المعنى.

فالأمم لا تنهار فقط عندما تخسر المعارك، بل عندما تفقد القدرة على معرفة لماذا كانت تقاتل أصلاً.

ظل سؤال واحد يرافقه:

كيف يمكن لأمة حملت في تاريخها مشروعا حضاريا واسعا أن تنتقل من صناعة الأحداث إلى انتظار نتائجها؟

في مكتبه، بين آلاف الصفحات التي جمعها عبر سنوات، بدأ عبدالله يقارن بين الحضارات.

قرأ عن إمبراطوريات امتلكت جيوشا لا تُهزم، لكنها فقدت قدرتها على التجدد.

وقرأ عن أمم امتلكت الثروة والعلم، ثم تحولت إلى صفحات في كتب التاريخ.

كل مرة كان يصل إلى النتيجة نفسها:

كتب في دفتره:

“الحضارات لا تموت عندما تفقد القوة فقط...

بل عندما تفقد الرؤية.”

فتح عبدالله المصحف أمامه.

لم يكن يقرأه باعتباره كتاب عبادات فقط، بل باعتباره رؤية للإنسان وعلاقته بالعمران والمسؤولية في الأرض.

كان يرى أن الرسالة الكبرى لا تختزل في الطقوس، بل تحمل تصورا عن بناء الإنسان والمجتمع والحياة.

لكن السؤال الذي كان يؤله:

كيف تحولت رسالة واسعة تدعو إلى العلم والعمران والعدل إلى واقع يستهلك الماضي أكثر مما يصنع المستقبل؟

كان يعرف أن الإجابة ليست سهلة.

فالأمم لا تسقط بسبب عامل واحد.

هناك أسباب داخلية:

ضعف التعليم.

الجمود الفكري.

الصراعات الداخلية.

غياب المؤسسات الفاعلة.

وهناك أسباب خارجية:

الصراعات الدولية.

الاستعمار.

تغير موازين القوى.

لكن السؤال الأعمق كان:

متى يبدأ المجتمع بفقدان قدرته على المبادرة؟

في إحدى جلساته مع يعقوب بن شاول، دار بينهما حديث طويل.

قال يعقوب:

“أنت تنظر إلى التاريخ من زاوية الحضارات والرسائل الكبرى، لكن هناك جانباً آخر. التاريخ لا يتحرك فقط بمن يملك الفكرة، بل بمن يستطيع تنظيمها.”

بقي عبدالله صامتاً للحظة.

كان يعرف أن في كلامه حقيقة لا يمكن تجاهلها.

فالتاريخ لا يمنح النفوذ لمن يملك الحق وحده، بل لمن يستطيع تحويل رؤيته إلى مؤسسات.

قال:

“صحيح... لكن يبقى السؤال: لماذا تفقد أمة ذات تراث عظيم قدرتها على التنظيم وصناعة المستقبل؟”

لم يكن سؤاله اتهاماً.

بل بحثاً عن لحظة التحول.

عاد عبدالله إلى بدايات القرن العشرين.

كانت المنطقة تعيش زمناً مليئاً بالتحويلات.

إمبراطوريات تتراجع.

قوى جديدة تصعد.

وأفكار قومية وسياسية تعيد تشكيل العالم.

وفي الوقت الذي كانت فيه مشاريع جديدة تبني مؤسساتها وتخطط لعقود قادمة، كانت أجزاء واسعة من العالم الإسلامي تعيش سؤالاً صعباً:

كيف يمكن الحفاظ على الهوية دون أن تتحول الهوية إلى قيد؟

وكيف يمكن الاستفادة من الماضي دون أن يصبح الماضي بديلاً عن المستقبل؟

كتب عبدالله في مذكراته:

“الأمم لا تفقد مكانتها لأن الآخرين أقوىاء فقط...

بل لأنها تتوقف عن اكتشاف مصادر قوتها.”

ثم أضاف:

“حين يتحول الفكر إلى تكرار، والتاريخ إلى حنين، والرسالة إلى عادة...

تبدأ الأمة بالخروج من حركة الزمن.”

ومع ذلك، لم يكن عبدالله مؤمناً بفكرة النهاية.

كان يرى أن الحضارات تمر بدورات.

تضعف.

تتراجع.

ثم قد تعود عندما تعيد اكتشاف نفسها.

فالسؤال لم يكن:

هل انتهى دور الأمة؟

بل:

هل تستطيع أن تستعيد وعيها قبل أن يُعاد تشكيل العالم من دونها؟

في نهاية الفصل، وقف عبدالله أمام نافذة مكتبه.

كانت المدينة من حوله تتحرك بلا توقف.

سيارات.

أضواء.

أبراج.

عالم جديد يولد كل يوم.

قال لنفسه:

“ليست أخطر لحظة على الأمة عندما يهزمها عدوها...

بل عندما تفقد القدرة على رؤية نفسها.”

أغلق دفتره.

لقد أدرك أن بحثه لم يعد فقط عن صعود مشروع سياسي أو سقوط مشروع آخر.

بل عن الفراغ الذي يتركه غياب المشروع الحضاري.

فالتاريخ لا يحتمل الفراغ طويلاً.

عندما تتراجع أمة عن موقعها، تأتي أفكار أخرى لئلا المساحة التي تركتها.

وكان السؤال القادم أكثر خطورة:

**إذا غابت الحضارة عن صناعة المستقبل...

فمن يملك حق كتابة شكل العالم الجديد؟**

الجزء الثاني: صراع الحضارات

لم يكن صراع الحضارات في جوهره صراعاً بين الأمم فقط، ولا مواجهة بين جيوش وحدود، بل كان صراعاً أعمق حول سؤال الإنسان نفسه:

من يملك الحق في تحديد معنى الحياة، وشكل المستقبل، ومصدر القيم التي تحكم البشر؟

فعبر التاريخ لم تسقط الحضارات فقط عندما هُزمت عسكرياً، بل عندما فقدت قدرتها على الإجابة عن الأسئلة الكبرى التي تمنحها المعنى والاتجاه.

كان عبدالله السالمي يرى أن الحضارات لا تقوم بالاقتصاد والسلاح وحدهما، فهذه أدوات القوة، لكنها ليست روح القوة. فالحضارة تحتاج إلى فكرة مركزية تجيب عن أسئلة الإنسان الكبرى:

من نحن؟

لماذا وُجدنا؟

ما حدود السلطة البشرية؟

وهل يستطيع الإنسان أن يصنع عالماً كاملاً بعيداً عن أي مرجعية تتجاوز إرادته؟

كان يقرأ تاريخ الإمبراطوريات القديمة والحديثة، ويلاحظ نمطاً يتكرر:

كلما امتلكت حضارة قوة هائلة، ظهر فيها ميل إلى الاعتقاد بأنها وصلت إلى مرحلة لا تحتاج فيها إلى أحد.

وهنا يبدأ التحول الخطير.

فالقوة التي كانت وسيلة لحماية الإنسان قد تتحول إلى وسيلة لإعادة تعريف الإنسان نفسه.

في الماضي كان الصراع بين الممالك والإمبراطوريات، أما في العصر الحديث فقد أصبح الصراع بين نماذج مختلفة للحياة:

نموذج يرى أن الإنسان كائن مادي يمكن تنظيمه عبر العلم والتقنية والقوانين فقط.

ونموذج يرى أن الإنسان ليس مجرد جسد واحتياجات، بل كائن يحمل بعداً روحياً وأخلاقياً، وأن هناك حدوداً لا يجوز للقوة البشرية تجاوزها.

كان عبدالله يعتقد أن القرن الحادي والعشرين لن يكون مجرد صراع على الموارد، بل صراعاً على هوية الإنسان.

فالتكنولوجيا لم تعد مجرد أداة في يد الإنسان، بل بدأت تتحول إلى قوة تعيد تشكيل طريقة تفكيره، وعلاقاته، وقراراته، وحتى مفهومه عن الحرية.

وفي إحدى جلساته مع دانيال كيم، خبير الذكاء الاصطناعي، قال دانيال:

“ربما كانت مشكلة البشر عبر التاريخ أنهم تركوا العاطفة والخلافات تقودهم. ربما حان الوقت لنظام أكثر عقلانية، نظام تديره المعرفة والخوارزميات.”

نظر إليه عبدالله طويلاً، ثم قال:

“لكن السؤال ليس: هل تستطيع الخوارزمية إدارة العالم؟
السؤال: من يحدد القيم التي ستُبرمج داخلها؟”

ساد الصمت للحظة.

لأن السؤال لم يكن تقنياً.

كان سؤالاً عن السلطة.

فمن يملك الخوارزمية قد لا يملك المعلومات فقط، بل قد يملك القدرة على تحديد ما يراه الإنسان حقيقة، وما يراه خطأ، وما يختاره، وما يستبعده.

وهنا بدأ عبدالله يفهم أن الصراع القادم لن يكون بين الشرق والغرب فقط، ولا بين دولة وأخرى، بل بين رؤيتين:

رؤية ترى أن خلاص الإنسان يأتي من مزيد من السيطرة والتنظيم والتكنولوجيا.

ورؤية ترى أن الإنسان يحتاج قبل كل شيء إلى استعادة علاقته بالمعنى والقيم والحدود التي تمنعه من التحول إلى سيد مطلق على الحياة.

كان عبدالله يعود دائماً إلى قصص القرآن عن الحضارات السابقة.

لم يكن يقرأها كقصص عن الماضي فقط، بل كسفن تتكرر:

فرعون لم يسقط لأنه كان ضعيفاً، بل لأنه ظن أن القوة جعلته فوق الحساب.

ونمرود لم يُذكر لأنه كان مجرد ملك، بل لأنه يمثل نموذج الإنسان الذي يتحول من مستخدم للسلطة إلى مدّعٍ لامتلاك الحقيقة المطلقة.

وكان السؤال الذي يطارده:

هل يمكن أن يعيد التاريخ إنتاج النموذج نفسه، ولكن بأدوات جديدة؟

هل سيكون برج بابل القادم مصنوعاً من الحجارة؟

أم من البيانات والذكاء الاصطناعي والشبكات العالمية؟

في هذا العالم الجديد، لم يكن الخطر في العلم نفسه، ولا في التقدم، ولا في التكنولوجيا.

فالإنسان عبر التاريخ احتاج إلى المعرفة ليعمر الأرض.

لكن الخطر يبدأ عندما تنفصل القوة عن الحكمة، والعلم عن الأخلاق، والقدرة عن المسؤولية.

عندها لا يصبح السؤال:

هل يستطيع الإنسان بناء عالم جديد؟

بل:

أي نوع من العالم سيبنيه عندما يعتقد أنه لم يعد بحاجة إلى مرجعية أعلى منه؟

الفصل الحادي عشر

المؤتمر الذي جمع أفكار المستقبل

لم يكن عبدالله السالمي يتوقع أن تكون قاعة المؤتمر في جنيف مجرد مكان يجتمع فيه مفكرون لمناقشة مستقبل العالم.

منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها القاعة، شعر أن المكان يحمل شيئاً أكبر من الكلمات التي ستقال داخله.

كانت القاعة واسعة، محاطة بجدران زجاجية تعكس أضواء المدينة.

في الخارج كانت الأبراج ترتفع نحو السماء، شاهدة على مرحلة جديدة من تاريخ الإنسان؛ مرحلة لم تعد القوة فيها تقاس فقط بعدد الجنود أو مساحة الأرض، بل بكمية المعرفة، وحجم البيانات، والقدرة على التأثير في عقول البشر.

في الداخل جلس أشخاص يحمل كل واحد منهم تصوراً مختلفاً عن المستقبل.

رجل يؤمن بالنظام.

آخر يؤمن بالتوازن بين القوى.

ثالث يرى أن الإيمان هو مصدر المعنى.

رابع يعتقد أن العلم هو الطريق للخلاص.

وخامس يرى أن التكنولوجيا قادرة على إصلاح أخطاء الإنسان.

لكن عبدالله كان يرى خلف كل هذه الرؤى سؤالاً واحداً:

هل يحاول الإنسان بناء عالم أفضل؟

أم أنه يحاول، دون أن يدرك، أن يصبح صاحب القرار النهائي في شكل هذا العالم؟

كانت البطاقات أمام المشاركين تحمل أسماءهم:

يعقوب بن شاؤول، المؤرخ اليهودي.

جوناثان ميلر، الباحث في اللاهوت السياسي.

مايكل أندرسون، الاستراتيجي الأمريكي.

لي وانغ، الفيلسوف الصيني.

أرفيند راو، المفكر الهندي.

ألكسي بتروف، الفيلسوف الروسي.

دانيال كيم، خبير الذكاء الاصطناعي.

أما بطاقة عبدالله فلم تحمل اسم دولة أو مؤسسة.

فقط:

باحث في فلسفة الحضارات.

ابتسم.

فقد كان يعرف أن التاريخ لا تصنعه دائماً الدول الأقوى، بل الأفكار التي تجد طريقها إلى الواقع.

بدأ المؤتمر بعنوان:

“مستقبل النظام العالمي بعد تغير مفهوم الدولة والسيادة.”

لكن عبدالله شعر أن السؤال الحقيقي أعمق بكثير.

فالمعركة القادمة ربما لم تعد فقط حول:

من يملك الأرض؟

أو من يملك السلاح؟

بل:

من يملك المعرفة؟

من يملك البيانات؟

ومن يملك القدرة على تعريف الحقيقة؟

تحدث مايكل أندرسون أولاً.

كان رجلاً هادئاً، أمضى حياته في دراسة انهيار الدول وصعود القوى.

قال:

“العالم اليوم أصبح أكثر تعقيداً من أن يُترك للفوضى.”

“الآزمات العابرة للحدود، من الاقتصاد إلى الأمن والتكنولوجيا، تحتاج إلى تعاون عالمي أكبر.”

ثم توقف قليلاً وأضاف:

“ربما يحتاج الإنسان إلى نظام أكثر قدرة على اتخاذ القرار.”

استمع عبدالله إليه باهتمام.

لم يسمع في كلامه رغبة واضحة في السيطرة.

بل سمع خوفاً حقيقياً من الفوضى.

وهنا شعر بأحد أخطر الأسئلة في التاريخ:

فالأفكار التي تغير العالم لا تأتي دائماً من أشخاص يريدون الشر.

أحياناً تأتي من أشخاص يؤمنون أنهم يقدمون الحل.

كتب عبدالله في دفتره:

“كثير من الأنظمة الكبرى بدأت بوعد جميل:

الأمن.

الاستقرار.

إنهاء الفوضى.

لكن السؤال الأصعب:

من يراقب من يملك سلطة تحقيق هذا الوعد؟”

تحدث لي وانغ بعد ذلك.

قال:

“العالم لم يعد قادراً على أن يُدار من مركز واحد.”

“الحضارات المختلفة لها الحق في أن تعود إلى موقعها التاريخي.”

كان كلامه اعتراضاً على الهيمنة القديمة.

لكن عبدالله لاحظ شيئاً مشتركاً بين الجميع.

كل طرف يريد عالماً جديداً.

وكل طرف يعتقد أن رؤيته هي الطريق الأفضل.

فكتب:

“ربما لا تكون المشكلة دائماً في اختلاف الرؤى، بل في اعتقاد كل رؤية أنها وحدها تملك الإجابة.”

كان يعقوب بن شاذول قليل الكلام.

جلس يحمل ملفات قديمة ونسخاً من وثائق تاريخية.

اقترب منه عبدالله أثناء الاستراحة وقال:

“في عصر أصبحت فيه كل المعلومات في جهاز صغير، لماذا ما زلت تحمل الأوراق القديمة؟”

ابتسم يعقوب وقال:

“لأن كثرة المعلومات لا تعني فهم التاريخ.”

ثم أضاف:

“تعلمت أن المشاريع الكبرى لا تبدأ دائماً من الطمع.”

“أحياناً تبدأ من الخوف.”

“الخوف من الاختفاء.”

“الخوف من الاضطهاد.”

“الخوف من فقدان الهوية.”

ثم نظر إلى عبدالله وقال:

“لكن التاريخ يضع أمام كل مشروع سؤالاً صعباً.”

“ماذا يحدث عندما يتحول الخوف إلى قوة؟”

بقي السؤال في ذهن عبدالله.

لأنه كان يعرف أن التاريخ مليء بالأمثلة على أفكار بدأت كوسيلة للحماية، ثم تحولت إلى أدوات للهيمنة.

دخلت سارة النجار إلى الحوار.

كانت تتابع المؤتمر لصالح تحقيق صحفي عن مستقبل البشرية، لكنها لم تكن تبحث عن التصريحات.

كانت تبحث عن الإنسان خلف التصريحات.

نظرت إلى الحاضرين وقالت:

“أنتم جميعاً تتحدثون عن مستقبل البشرية، لكن كل واحد منكم ينظر إليه من نافذة مختلفة.”

ثم بدأت تعدد:

“الأمريكي يرى الحاجة إلى النظام.”

“الصيني يرى ضرورة التوازن.”

“الروسي يرى عالماً متعدد القوى.”

“المؤمن يرى المعنى.”

“والتقني يرى الحلول.”

ثم توقفت.

وقالت:

“لكن أين الإنسان في كل هذا؟”

ساد الصمت.

لأن السؤال لم يكن سياسياً.

كان سؤالاً عن جوهر الحضارة نفسها.

تحدث جوناثان ميلر عن دور الإيمان في صناعة التاريخ.

قال:

“لا يمكن فهم الحضارات دون فهم الأفكار الدينية التي شكلتها.”

سأله عبدالله:

“لكن كيف يميز الإنسان بين رسالة الله وبين رغباته الخاصة عندما يستخدم اسم الله؟”

لم يجب جوناثان مباشرة.

فالسؤال قديم قدم التاريخ.

كم مرة تحولت الرسائل الروحية إلى مشاريع قوة؟

وكم مرة استخدم الإنسان المقدس ليبرر صراعاته؟

ثم جاء دور دانيال كيم.

عرض نظامًا متطورًا للذكاء الاصطناعي.

قال:

“المشكلة الأساسية في البشرية أن الإنسان لا يتخذ قرارات عقلانية دائمًا.”

“الحروب والفساد والفوضى نتيجة أخطاء بشرية.”

“إذا منحنا الأنظمة الذكية دورًا أكبر، فقد نستطيع بناء عالم أكثر كفاءة.”

ظهرت على الشاشة ملايين البيانات.

أنماط السلوك.

الاحتمالات.

التوقعات.

كان النظام يعرف الإنسان من خلال أرقامه.

لكن عبدالله سأل:

“هل يستطيع أن يعرف الإنسان من خلال روحه؟”

نظر إليه دانيال.

فقال عبدالله:

“قد تعرف ماذا سيفعل الإنسان.”

“لكن هل تعرف لماذا يبحث عن معنى؟”

في نهاية اليوم، خرج المشاركون من القاعة.

لكن عبدالله بقي وحده للحظات.

فتح دفتره وكتب:

“ربما لم تعد معركة المستقبل بين الدول فقط.”

“بل بين رؤيتين للإنسان.”

“رؤية ترى الإنسان ككائن يمكن تنظيمه بالكامل.”

“ورؤية ترى أن الإنسان أكبر من أن يتحول إلى رقم في نظام.”

ثم أضاف:

“منذ آلاف السنين حاول الإنسان بناء برج يصل إلى السماء.”

“اليوم لم يعد يبنيه بالحجارة فقط.”

“بل بالمعرفة والبيانات والخوارزميات.”

“لكن السؤال نفسه يعود:

هل المشكلة في البرج؟

أم في الإنسان الذي يظن أنه أصبح قادرًا على امتلاك السماء؟”

في اليوم التالي، جلس عبدالله مع يعقوب في مقهى هادئ.

لم يكن الحديث عن قيام الدول هذه المرة.

كان عن الجدران التي بقيت بين الشعوب رغم مرور القرون.

قال عبدالله:

“كلما درست التاريخ، وجدت أن العالم الإسلامي والعالم المسيحي ليسا غريبين كما يصور البعض.”

نظر إليه يعقوب باهتمام.

تابع:

“بينهما صراعات طويلة، نعم. لكن بينهما أيضًا تاريخ مشترك، وتأثير متبادل في العلم والفلسفة والثقافة.”

ثم قال:

“أحيانًا أشعر أنهما يشبهان صديقين قديمين اختلفا بسبب جراح الماضي، حتى نسيا حجم الأشياء التي تجمعهما.”

قال يعقوب:

“لكن الجراح لا تختفي بسهولة.”

أجاب عبدالله:

“صحيح. المشكلة ليست في وجود الخلاف، بل عندما يصبح الخلاف هو الهوية الوحيدة.”

ثم نظر إلى الشارع وقال:

“تعلمت من التاريخ أن بعض المشاريع لا تخاف من العدو بقدر خوفها من المصالحة.”

سأله يعقوب:

“لماذا؟”

قال عبدالله:

“لأن التقارب بين الشعوب يضعف الأفكار التي تحتاج إلى استمرار الخوف.”

ثم أضاف:

“أحياناً لا يحتاج الانقسام إلى شخص واحد يصنعه، بل إلى مصالح كثيرة تجد أن استمرار الصراع أكثر فائدة من نهايته.”

كتب عبدالله في دفتره:

“عندما يصبح الخوف مصدر قوة، يصبح السلام تهديداً.”

ثم أغلق الدفتر.

كان يشعر أن المؤتمر لم يكن اجتماعاً لصناعة المستقبل فقط.

بل كان شهادة على لحظة يقف فيها الإنسان أمام أعظم اختبارات:

هل سيستخدم المعرفة ليصبح أكثر حكمة؟

أم ليبنى برج بابل جديداً، يصل به إلى السماء، ثم ينسى السؤال الأهم:

من الذي سيحكم الإنسان بعد أن ينجح الإنسان في بناء كل شيء؟”

الفصل الثاني عشر

هل يصنع التاريخ من يملك القوة؟

لم يكن عبدالله السالمي يؤمن بأن التاريخ مجرد سلسلة من الحروب والانتصارات.

كان يرى أن الحروب ليست سوى اللحظات الظاهرة من التاريخ، أما الجزء الحقيقي الذي يصنع المستقبل فهو ما يحدث خلف الستار:

من يملك المعرفة؟

من يملك القدرة على تنظيم الفوضى؟

ومن يستطيع أن يحول الخسارة المؤقتة إلى انتصار طويل المدى؟

كان يجلس في مكتبه القديم، تحيط به آلاف الكتب التي جمعها خلال أربعين عاماً من البحث. كتب عن الإمبراطوريات التي سقطت، وعن الحضارات التي اختفت، وعن رجال ظنوا أنهم امتلكوا الزمن ثم أصبحوا مجرد أسماء في صفحات التاريخ.

فتح أمامه صفحة كتب عليها:

“ليس المهم من ينتصر في المعركة الأولى، بل من يكتب شكل العالم بعد انتهائها.”

توقف عند العبارة طويلاً.

كان يعلم أن التاريخ لا يكتبه الأقوى دائماً، لكنه غالباً يكتب بواسطة من يملك القدرة على تنظيم القوة.

في المؤتمر الدولي الذي جمع الشخصيات الثمانية، جلس مايكل أندرسون أمام الشاشة الكبيرة التي تعرض خريطة العالم.

كان صوته هادئاً، واثقاً.

قال:

“منذ بداية التاريخ، احتاج البشر إلى مركز قيادة. الإمبراطوريات القديمة فعلت ذلك، ثم جاءت الدول الحديثة. المشكلة ليست في وجود قوة عظمى، بل في السؤال: هل تستخدم القوة لحماية النظام أم لفرض السيطرة؟”

نظر عبدالله إليه.

لم يكن يرى في كلامه شراً.

بل رأى منطقاً تعرفه كل الإمبراطوريات التي سبقت.

روما قالت إنها تجلب الحضارة.

بريطانيا قالت إنها تنشر القانون.

كل قوة كبرى في التاريخ وجدت مبررات أخلاقية لنفوذها.

لكن السؤال الذي كان يلاحق عبدالله:

متى تتحول الحماية إلى وصاية؟

ومتى يتحول النظام إلى قيد؟

تدخل لي وانغ، الفيلسوف الصيني، وقال:

“المشكلة ليست في القوة نفسها، بل في احتكار القوة. العالم لم يعد يقبل أن يحدد طرف واحد مستقبل الجميع.”

ابتسم مايكل.

“لكن العالم يحتاج إلى من يتحمل المسؤولية. الفوضى أخطر من القيادة.”

رد لي وانغ:

“ومن يراقب القائد عندما يخطئ؟”

ساد الصمت.

فهم عبدالله أن الحوار لم يكن بين الشرق والغرب فقط.

كان سؤالاً أقدم من الدول نفسها:

هل يحتاج الإنسان إلى سلطة قوية لكي يعيش؟

أم أن السلطة القوية هي أول خطوة نحو فقدان الحرية؟

في تلك الليلة، عاد عبدالله إلى غرفته.

كان يشعر بأن كل شخصية في المؤتمر كانت تحمل جزءاً من الحقيقة.

الأمريكي يخاف من الفوضى.

الصيني يخاف من الهيمنة.

الروسي يخاف من عالم يسيطر عليه قطب واحد.

الهندي يبحث عن توازن بين الروح والعلم.

المهندس التقني يؤمن أن الخوارزمية يمكن أن تصلح ما أفسده الإنسان.

لكن عبدالله كان يرى سؤالاً أعمق:

ماذا يحدث عندما يقتنع الإنسان أن مشكلته الأساسية ليست في أخلاقه، بل في طريقة إدارة النظام؟

ماذا يحدث عندما يقرر أنه يستطيع بناء عالم مثالي فقط إذا أزال العنصر الأكثر تعقيداً؟

الإنسان نفسه.

في نهاية الجلسة، عرض دانيال كيم، خبير الذكاء الاصطناعي، مشروعه الجديد.

نظام عالمي قادر على تحليل الاقتصاد، ومراقبة الأزمات، والتنبيه بالجريمة، وإدارة الموارد.

قال بثقة:

“لأول مرة في التاريخ، نملك فرصة لتقليل أخطاء البشر. القرارات لن تكون رهينة العاطفة أو الصراع السياسي.”

سأله عبدالله:

“ومن يقرر ما هو الخطأ وما هو الصواب؟”

تردد دانيال للحظة.

ثم قال:

“البيانات.”

ابتسم عبدالله بحزن.

“لكن البيانات تخبرنا بما يحدث، ولا تخبرنا دائماً بما يجب أن يحدث.”

ظل السؤال معلقاً في القاعة.

لأن الجميع أدرك أن المعركة القادمة ربما لن تكون بين جيوش.

بل بين رؤيتين للإنسان:

رؤية ترى الإنسان كرقم يمكن تحسينه.

ورؤية ترى الإنسان ككائن له روح وحرية ومسؤولية.

في طريق عودته، تذكر عبدالله الآيات التي درسها سنوات طويلة.

لم يكن خوفه من القوة.

فالقراّن لم يحارب القوة، بل حذر من الوهم الذي يصيب الإنسان عندما يملك القوة.

فرعون لم يهلك لأنه كان قوياً فقط.

بل لأنه ظن أن القوة جعلته فوق الحساب.

النمرود لم يُذكر لأنه كان ملكاً فقط.

بل لأنه ظن أن سلطانه يمنحه القدرة على تحدي الحقيقة.

كان عبدالله يعلم أن المشكلة لم تكن يوماً في العلم أو الحضارة أو التقدم.

المشكلة تبدأ عندما ينسى الإنسان حدود وجوده.

عندما يتحول السؤال من:

“كيف نخدم الإنسان؟”

إلى:

“كيف نجعل الإنسان يخدم النظام؟”

وفي آخر صفحة من مذكراته كتب عبدالله:

“التاريخ لا يصنعه من يملك القوة فقط.

فالقوة وحدها قد تصنع إمبراطورية.

لكن الفكرة هي التي تصنع عصرًا.

والسؤال الحقيقي ليس: من يملك العالم؟

بل:

أي صورة للإنسان يريد هذا العالم أن يصنعها؟”

ثم أغلق الكتاب.

لكنه لم يكن يعلم أن الوثيقة التي ستصل إليه في الأيام القادمة ستجعله يعيد قراءة القرن كله من جديد.

لأنها لم تكن وثيقة عن الماضي فقط.

بل عن المستقبل الذي كان يتشكل أمام أعين البشرية

الفصل الثالث عشر

الدين والسياسة وصناعة المستقبل

لم يكن عبدالله السالمي يخشى من الدين.

بل على العكس، كان يرى أن الدين في جوهره أحد أعمق الأسئلة التي واجهها الإنسان منذ بداية التاريخ.

كان السؤال الديني بالنسبة له ليس مجرد طقوس أو شعارات، بل سؤال المعنى:

لماذا وُجد الإنسان؟

وما حدود قدرته؟

ولن تكون المسؤولية عندما يمتلك القوة؟

لكن ما كان يخشاه عبدالله لم يكن الإيمان.

بل اللحظة التي يتحول فيها الإيمان من طريق يهذب الإنسان إلى أداة تمنحه شعورًا بأنه فوق الآخرين.

كان يكتب في دفتره:

“الخطر لا يبدأ عندما يدخل الإيمان إلى حياة الإنسان.”

“بل عندما يستخدم الإنسان اسم الإيمان ليهرب من مسؤولية أفعاله.”

منذ سنوات بحثه الأولى، كان عبدالله يدرس علاقة الدين بالسلطة.

و يلاحظ أن هذه العلاقة كانت دائمًا من أكثر العلاقات تعقيدًا في التاريخ.

فالدين جاء ليخاطب ضمير الإنسان.

أما السياسة فكانت تبحث عن إدارة البشر والمصالح والقوة.

وعندما يلتقي المجالان، قد يولد العدل إذا بقيت الأخلاق حاضرة.

وقد يولد الصراع عندما يصبح المقدس وسيلة لتحقيق أهداف بشرية.

كان عبدالله يحمل داخله صراعاً شخصياً.

فهو رجل يؤمن بأن للإنسان حاجة إلى الوحي والمعنى، لكنه كان يخشى من الذين يتحدثون باسم الله أكثر مما يخشون مسؤوليتهم أمام الله.

كان يسأل نفسه:

“كيف يمكن للإنسان أن يدافع عن المقدس دون أن يحوله إلى أداة بشرية؟”

في إحدى جلسات الحوار، جلس عبدالله مع يعقوب بن شأول.

كان يعقوب يحمل معه مجموعة من الوثائق القديمة.

لم يكن يريد أن يكون مدافعاً عن موقف سياسي، بل مؤرخاً يحاول تفسير رحلة شعب عبر الزمن.

قال يعقوب:

“المشكلة أن كثيرين يقرأون النتائج ويتجاهلون البدايات.”

“بالنسبة لكثير من اليهود الذين عاشوا في أوروبا، لم تكن فكرة الوطن مجرد مشروع سياسي. كانت مرتبطة بالخوف، والهوية، والبحث عن الأمان.”

صمت قليلاً ثم قال:

“عندما يعيش شعب طويلاً وهو يشعر بأنه مهدد، تصبح فكرة الحماية جزءاً من ذاكرته.”

استمع عبدالله باهتمام.

فهو لم يكن يريد أن ينكر ألم البشر.

لكنه قال:

“أنفهم حاجة الإنسان إلى الأمان.”

“لكن التاريخ يضع أمام كل مشروع سؤالاً أخلاقياً.”

نظر إليه يعقوب.

فأكمل:

“ماذا يحدث عندما يتحول حق جماعة في البحث عن الأمان إلى قوة تحدد مصير جماعات أخرى؟”

لم يكن السؤال سهلاً على يعقوب.

لأنه لم يسمع فيه اتهاماً فقط.

بل رأى فيه السؤال الذي يطارد كل مشروع يصل إلى السلطة.

كان يعلم أن التاريخ لا يتغير فقط بسبب نوايا البداية.

بل بسبب الخيارات التي تأتي بعد امتلاك القوة.

وفي داخله كان يعيش صراعاً:

هل يدافع عن ذاكرة شعبه؟

أم يواجه الأسئلة التي تفرضها القوة عندما تتحول الفكرة إلى دولة ومشروع سياسي؟

دخل جوناثان ميلر إلى الحوار.

كان مختلفاً عن يعقوب.

فهو لم ينظر إلى التاريخ فقط من زاوية السياسة، بل من خلال رؤية دينية خاصة.

قال:

“هناك من يؤمن أن التاريخ ليس سلسلة أحداث عشوائية، بل له مسار ومعنى.”

“وبعض المؤمنين يرون أن الأحداث الكبرى مرتبطة بوعود دينية وتصورات عن نهاية التاريخ.”

نظر عبدالله إليه.

كان يعرف أن هذا النوع من الأفكار كان له تأثير كبير في السياسة الحديثة.

فسأله:

“لكن كيف يميز الإنسان بين الإيمان الحقيقي وبين استخدام الإيمان لتحقيق مشروع بشري؟”

صمت جوناثان.

فالسؤال كان يمس منطقة حساسة داخله.

فهو يؤمن بصدق بما يراه رسالة دينية.

لكنه كان يدرك أن التاريخ مليء بأمثلة استخدم فيها البشر المقدس لتبرير أفعالهم.

قالت سارة النجار، التي كانت تتابع الحوار:

“كل دين يقول إنه يحمل الحقيقة.”

“وكل مشروع سياسي يقول إنه يريد الخير.”

ثم نظرت إلى الشخصيات حول الطاولة وقالت:

“لكن لماذا يتحول الخير أحياناً إلى صراع؟”

كان سؤالها بسيطاً.

لكنه أصاب جوهر القضية.

نظر عبدالله إليها وقال:

“لأن الإنسان قد يستخدم المقدس ليبرر ما يريد.”

“بدل أن يجعل نفسه مسؤولاً أمام المقدس.”

كتبت سارة الجملة في دفترها.

ولأول مرة شعرت أن مهمتها كصحفية لم تعد فقط نقل الأحداث.

بل فهم الإنسان الذي يقف خلفها.

في تلك الليلة، جلس دانيال كيم وحده أمام شاشاته.

كان ينظر إلى نماذج الذكاء الاصطناعي التي يعمل عليها.

لم يكن يرى نفسه عدوًا للدين.

لكنه كان يتساءل:

“إذا استطاعت التكنولوجيا أن تقلل الألم والفوضى، فلماذا يحتاج الإنسان إلى البحث عن إجابات غيبية؟”

كان صراعه مختلفاً.

فهو لم يكن يريد السيطرة على الإنسان.

كان يريد إصلاح أخطائه.

لكنه بدأ يشعر بسؤال عبدالله يطارده:

هل إصلاح الإنسان يعني فقط جعل قراراته أكثر كفاءة؟

أم أن الإنسان يحمل شيئاً لا يمكن قياسه بالأرقام؟

في الجلسة التالية، طرح دانيال السؤال أمام الجميع:

“ماذا لو وصل العالم إلى مرحلة تصبح فيها الأنظمة الذكية أكثر قدرة من البشر على إدارة المجتمعات؟”

“هل سيبقى الدين ضرورياً في صناعة المستقبل؟”

نظر الجميع إليه.

قال عبدالله:

“التكنولوجيا تستطيع أن تجيب عن سؤال: كيف؟”

“لكنها لا تستطيع وحدها أن تجيب عن سؤال: لماذا؟”

ثم أضاف:

“يمكنك أن تبني نظاماً يعرف كل شيء عن الإنسان.”

“لكن هل تستطيع أن تمنحه معنى؟”

عاد عبدالله إلى غرفته في نهاية اليوم.

فتح دفتره وكتب:

“الدين والسياسة كلاهما يحاولان الإجابة عن سؤال الإنسان.”

“لكن الفرق أن الدين يسأل: ما مسؤولية الإنسان أمام خالقه؟”

“أما السياسة فتسأل: كيف يدير الإنسان عالمه؟”

ثم توقف.

وأضاف:

“وعندما ينسى الإنسان السؤال الأول، قد تتحول إجاباته السياسية إلى محاولة لامتلاك كل شيء.”

تذكر عبدالله قصة برج بابل.

لم يرها مجرد قصة عن بناء مرتفع.

بل رمزاً لرغبة الإنسان في الوصول إلى مكان لا تحده حدود.

واليوم لم يعد البرج يبنى بالحجارة.

بل بالمعرفة.

والاقتصاد.

والتكنولوجيا.

والقدرة على إعادة تشكيل حياة البشر.

في آخر صفحة كتب:

“المعركة القادمة قد لا تكون بين دين ودين.”

“ولا بين حضارة وحضارة فقط.”

“بل بين رؤيتين للإنسان.”

“إنسان يعرف أن لديه قوة لكنه يحمل مسؤولية.”

“وإنسان يعتقد أن امتلاكه للقدرة يمنحه الحق في إعادة تعريف كل شيء.”

أغلق عبدالله الدفتر.

لكنه شعر أن السؤال الحقيقي لم يبدأ بعد.

لأن من يملك القدرة على صناعة المستقبل...

الدين والسياسة وصناعة المستقبل

بعد حوار مع جوناثان ويعقوب، يعود عبدالله إلى الفندق.

في تلك الليلة لم يفتح عبدالله كتاباً.

جلس أمام نافذة الغرفة، بينما كانت أضواء المدينة تنعكس على الزجاج.

أغلق عينيه.

ولأول مرة منذ سنوات، لم يكن يخشى أن تكون الوثائق ناقصة...

بل أن يكون هو من يقرأها بطريقة ناقصة.

قال في نفسه:

“ماذا لو كنت أجمع الأدلة التي تؤيد ما أؤمن به... وأتجاوز، دون أن أشعر، ما يخالفه؟”

أقلقه السؤال.

لأنه عرف أن الإنسان لا يخدع الآخرين أولاً...

بل قد يخدع نفسه.

فتح دفتره.

ولم يكتب ملاحظة عن التاريخ.

كتب عن نفسه:

“إذا أصبحت أبحث عن إثبات فكرتي أكثر من بحثي عن الحقيقة...

فقد بدأت أسقط، وأنا أظن أنني أصعد.”

ثم أغلق الدفتر دون أن يجد جواباً.

سيواجه السؤال الأصعب:

هل سيستخدمها لخدمة الإنسان؟

أم لإعادة تشكيل الإنسان؟

الفصل الرابع عشر

من يملك الإنسان؟

لم يكن السؤال الذي واجهه عبدالله السالمي في تلك الليلة متعلقاً بمن يملك الأرض.

فالأرض، رغم كل الحروب التي دارت عليها، بقيت صامتة.

الحدود تغيرت.

الرايات سقطت.

والإمبراطوريات التي ظنت أنها خالدة رحلت.

لكن شيئاً واحداً بقي دائماً في قلب الصراع:

الإنسان نفسه.

جلس عبدالله أمام نافذة الفندق، يراقب مدينة حديثة لا تنام.

أضواء لا تتطفئ.

شاشات تعرض آلاف الرسائل في كل لحظة.

بشر يتحركون داخل شبكة هائلة من المعلومات والقرارات.

كان المشهد يحمل تناقضاً غريباً.

فالإنسان بدا أكثر حرية من أي وقت مضى.

لكنه في الوقت نفسه أصبح أكثر ارتباطاً بأنظمة لا يراها.

فتح عبدالله دفتره وكتب:

“في الماضي كان السؤال: من يملك الأرض؟”

“أما في المستقبل فقد يصبح السؤال: من يملك الإنسان الذي يعيش عليها؟”

منذ بداية بحثه، كان عبدالله يعتقد أن أعظم المعارك في التاريخ لم تكن دائماً عسكرية.

فالإمبراطوريات القديمة سيطرت بالسيف.

والقوى الحديثة استخدمت الاقتصاد والسياسة.

أما العصر القادم، فقد تكون ساحته مختلفة.

لم يعد الصراع فقط على الموارد.

بل على:

الوعي.

المعلومات.

طريقة التفكير.

والقدرة على التأثير في اختيارات البشر.

كان عبدالله يخشى فكرة واحدة:

أن يصل الإنسان إلى مرحلة لا يُجبر فيها على شيء بالقوة...

لأنه يصبح مقتنعاً بما تم اختياره له.

في الجلسة الأخيرة من المؤتمر، عادت الشخصيات إلى السؤال نفسه:

كيف سيكون شكل العالم القادم؟

قال مايكل أندرسون:

“العالم يحتاج إلى نظام أكثر قدرة على إدارة الفوضى.”

كان يتحدث كرجل عاش سنوات يدرس الحروب والأزمات.

بالنسبة له، الحرية بلا نظام قد تتحول إلى فوضى.

قال:

“التاريخ أثبت أن غياب التنسيق بين القوى الكبرى جلب الكوارث. ربما تحتاج البشرية إلى نموذج أكثر وحدة.”

استمع عبدالله إليه.

وكان يعرف أن مايكل لم يكن يبحث عن السيطرة من وجهة نظره.

كان يبحث عن الأمن.

وهذا ما جعل السؤال أكثر تعقيداً.

فكثير من الأنظمة الكبرى في التاريخ لم تبدأ بشعار القمع.

بل بدأت بوعد:

سنحميكم من الفوضى.

رد لي وانغ:

“لكن المشكلة ليست فقط في وجود النظام.”

“المشكلة في من يملك حق تعريف النظام.”

“كل قوة تاريخية اعتقدت أنها تقدم الاستقرار، لكن الآخرين رأوا أحياناً أنها تفرض رؤيتها عليهم.”

ساد الصمت.

لأن السؤال لم يكن عن دولة واحدة.

بل عن طبيعة القوة نفسها.

أما دانيال كيم، فكان يرى المستقبل من زاوية مختلفة.

كان يجلس أمام شاشاته، محاطاً بالأرقام والنماذج.

لم يكن يكره الإنسان.

بل كان يؤمن أنه يحاول إنقاذه من أخطائه.

قال:

“لقد فشل البشر في إدارة أنفسهم مرات كثيرة.”

“الحروب، الفقر، الفساد، القرارات العاطفية... كلها نتائج لضعف بشري.”

“إذا استطاعت الأنظمة الذكية أن تساعد الإنسان على اتخاذ قرارات أفضل، فلماذا نرفض ذلك؟”

نظر إليه عبدالله وقال:

“لأن هناك فرقاً بين المساعدة والسيطرة.”

ابتسم دانيال.

“لكن إذا كانت النتيجة عالمًا أكثر أماناً، فما المشكلة؟”

صمت عبدالله قليلاً.

ثم قال:

“المشكلة ليست فقط في النتيجة.”

“المشكلة في السؤال الذي يأتي بعدها.”

“إذا أصبح الإنسان لا يختار إلا ما يراه النظام الأفضل له، فهل بقي الاختيار اختياراً؟”

كانت سارة النجار تستمع بصمت.

في بداية رحلتها كانت ترى العالم بطريقة مختلفة.

كانت تعتقد أن الحرية تعني أن يمتلك الإنسان أكبر عدد من الخيارات.

لكنها خلال الأشهر الماضية بدأت ترى جانباً آخر.

كتبت في دفترها:

“كنت أظن أن الحرية تعني أن أختار ما أريد.”

ثم توقفت.

وأضافت:

“لكنني بدأت أسأل:

ماذا لو أصبحت اختياراتي نفسها مصنوعة من الآخرين؟”

لم تعد سارة تبحث فقط عن الأخبار.

بدأت تبحث عن معنى أعمق.

كانت ترى أن الصراع القادم ربما لن يكون بين من يمنع الإنسان من الكلام ومن يسمح له بالكلام.

بل بين من يملك القدرة على تشكيل ما يفكر فيه الإنسان قبل أن يتحدث.

قالت لعبدالله:

“ربما أخطر شكل من أشكال السيطرة ليس أن تمنع الإنسان من الاختيار.”

“بل أن تجعله يعتقد أن اختياره تابع منه وحده.”

نظر إليها عبدالله.

وشعر أن سؤالها أصبح جزءاً من الرحلة.

عاد عبدالله إلى دراسة التاريخ.

وجد أن كل عصر امتلك أداة للسيطرة.

القوة العسكرية.

الثروة.

المؤسسات.

الإعلام.

أما العصر الجديد فقد يمتلك أداة أكثر عمقاً:

معرفة الإنسان من الداخل.

معرفة عاداته.

رغباته.

مخاوفه.

نقاط ضعفه.

وقدرة الأنظمة على التنبؤ بسلوكه.

وهنا عاد إلى قصة برج بابل.

لم تكن المشكلة في البناء ذاته.

بل في الوهم الذي حمله الإنسان:

أنه يستطيع الوصول إلى كل شيء بمجرد امتلاك القوة.

لكن عبدالله كان حريصاً على ألا يقع في الخطأ نفسه الذي كان يحذر منه.

لم يكن يرى التكنولوجيا عدواً.

فالعلم في نظره نعمة عظيمة.

يمكن أن ينقذ حياة الملايين.

لكن الخطر يبدأ عندما تتحول الأداة إلى غاية.

وعندما يعتقد الإنسان أن ما يستطيع قياسه هو فقط ما له قيمة.

في آخر الليل، فتح عبدالله دفتره وكتب:

“لم يعد السؤال في القرن القادم:

من يحكم الدول؟”

بل:

من يشكل الإنسان قبل أن يختار؟”

ثم أضاف:

“من يملك المعرفة يملك القدرة على التأثير.”

“ومن يملك القدرة على التأثير يستطيع أن يغير تعريف الإنسان لنفسه.”

أغلقت سارة دفترها في الجهة المقابلة من القاعة.

لم تعد تشاهد هذا الصراع كصحفية فقط.

بدأت تشعر أنها جزء من السؤال.

فالمشكلة لم تعد بعيدة عنها.

فكل إنسان أصبح يعيش داخل هذا النظام الجديد.

وفي نهاية الصفحة كتب عبدالله:

“المعركة القادمة لن تكون فقط بين الشرق والغرب.”

“ولا بين حضارة وأخرى.”

“بل داخل الإنسان نفسه.”

“بين رغبة الإنسان في أن يصبح سيداً على كل شيء...”

“وبين الحقيقة التي تذكره بأنه، مهما بلغ من العلم والقوة، سيبقى إنساناً.”

وأغلق الدفتر.

لكن السؤال بقي مفتوحاً:

إذا أصبح الإنسان قادراً على إعادة تشكيل العالم... فمن سيعيد تشكيل الإنسان؟

الفصل الخامس عشر

عندما دخل الذكاء الاصطناعي إلى الحكم

لم يدخل الذكاء الاصطناعي إلى قصور الحكم من خلال انقلاب.

لم يحمل راية.

ولم يعلن حرباً على الإنسان.

دخل بهدوء.

دخل من الأبواب التي فتحتها الإنسان بنفسه.

في البداية كان مجرد أداة.

يساعد الأطباء على تشخيص الأمراض.

يساعد العلماء على اكتشاف حلول جديدة.

يحلل كميات هائلة من المعلومات عجز العقل البشري عن استيعابها.

كان الإنسان ينظر إليه بإعجاب.

أداة جديدة تمنحه قدرة لم يمتلكها من قبل.

لكن مع مرور الوقت تغير السؤال.

لم يعد السؤال:

“ماذا يستطيع الذكاء الاصطناعي أن يفعل لمساعدة الإنسان؟”

بل أصبح:

“ما هي الأشياء التي يجب أن تبقى بيد الإنسان وحده؟”

كان عبدالله السالمي يراقب هذا التحول بحذر.

لم يكن يخاف من الآلة.

فهو يعرف أن الأدوات لم تكن يوماً هي المشكلة.

السيف يمكن أن يحمي إنساناً ويمكن أن يقتله.

والعلم يمكن أن ينقذ حياة ويمكن أن يستخدم في الدمار.

المشكلة لم تكن في الأداة.

بل في الإنسان الذي يحملها.

لكن ما أقلقته هو أن البشرية بدأت تدخل مرحلة جديدة:

مرحلة لا تصنع فيها الأدوات فقط...

بل تصنع أدوات قادرة على اتخاذ قرارات كانت يوماً حكراً على العقل البشري.
في مكتبه، وبين كتب التاريخ والفلسفة، عاد عبدالله إلى القصص التي درسها طوال حياته.
كان يرى أن التاريخ لا يحذر الإنسان من الضعف فقط.

بل يحذره من لحظة الوهم.

لحظة يعتقد فيها أنه تجاوز حدوده.

كان يتذكر فرعون.

لم تكن مشكلته أنه امتلك القوة.

بل أنه ظن أن القوة تمنحه الحق في تعريف الحقيقة.

وكان يتذكر النمرود.

لم يكن السؤال حول حجم سلطته.

بل حول اعتقاده أن الإنسان يستطيع أن يجعل قدرته معياراً أعلى من كل شيء.

ثم كتب عبدالله:

“في كل عصر يظهر شيء يُعِد الإنسان بأنه يستطيع أن يستغني عن حدوده.”

“وفي كل مرة يكون السؤال الحقيقي: هل يملك الإنسان القوة... أم أن القوة تملكه؟”

في أحد المؤتمرات، وقف دانيال كيم أمام شاشة ضخمة تعرض مشروعه الجديد.

لم يكن يتحدث عن برنامج.

كان يتحدث عن نموذج جديد لإدارة العالم.

قال:

“لقد أصبحت المشكلات البشرية أكثر تعقيداً من قدرة الأنظمة التقليدية على التعامل معها.”

“الاقتصاد العالمي.”

“الآزمات تتجاوز الحدود.”

“كمية المعلومات أكبر من قدرة أي عقل بشري على تحليلها.”

ثم تابع:

“الذكاء الاصطناعي لا يجب أن يحل محل الإنسان، بل يجب أن يساعده على اتخاذ قرارات أكثر عدلاً وكفاءة.”

كان الجميع يستمع.

لكن عبدالله لم ينظر إلى الشاشة.

كان ينظر إلى دانيال.

لأنه كان يرى خلف الكلمات صراعاً إنسانياً.

فدانيال لم يكن رجلاً يريد السيطرة.

بل كان رجلاً آمن طوال حياته بأن العقل قادر على إصلاح أخطاء البشر.

كان يرى الحروب والفوضى والظلم، ويسأل:

“إذا كان الإنسان يفشل باستمرار، فلماذا لا نبحث عن نظام يقلل أخطاءه؟”

لكن عبدالله كان يرى سؤالاً آخر:

“إذا أزلنا أخطاء الإنسان كلها، فهل نبقى على الإنسان نفسه؟”

رفع عبدالله يده وقال:

“دانيال، من يحدد معنى العدل الذي سيبنى عليه النظام قراراته؟”

توقف دانيال للحظة.

قال:

“القيم الإنسانية المشتركة.”

ابتسم عبدالله بهدوء.

“وهنا تبدأ المشكلة.”

“فالتاريخ كله كان صراعاً حول تعريف هذه القيم.”

“كل حضارة ظنت أنها تملك الإجابة.”

“وكل قوة اعتقدت أحياناً أنها تستطيع فرض رؤيتها باسم الخير.”

كانت سارة النجار تتابع الحوار من مقعدها.

في السابق كانت تكتب عن الأحداث.

أما الآن فقد بدأت تكتب عن الأسئلة التي تقف خلف الأحداث.

رفعت يدها وقالت:

“أريد أن أسأل سؤالاً مختلفاً.”

نظر الجميع إليها.

قالت:

“نحن نتحدث دائماً عن أن الذكاء الاصطناعي سيغير العالم.”

“لكن هل سألنا أنفسنا: من سيغير الذكاء الاصطناعي؟”

ساد الصمت.

ثم تابعت:

“إذا كانت الخوارزمية تتعلم من البشر، فهي تحمل أفكار البشر وانحيازاتهم.”

“فهل نحن نبني نظاماً أكثر حكمة؟”

“أم أننا ننقل صراعاتنا القديمة إلى آلة أكثر قوة؟”

نظر عبدالله إليها بإعجاب.

فقد أدرك أن سارة لم تعد فقط صحفية تنقل الحوار.

بل أصبحت جزءاً من السؤال.

في تلك الفترة بدأت دول كثيرة تتحدث عن عالم جديد:

هوية رقمية.

أنظمة مالية ذكية.

مدن تعتمد على البيانات.

قرارات حكومية مدعومة بالخوارزميات.

وكانت الحجج تبدو دائماً مقنعة:

الأمن.

الكفاءة.

تقليل الجريمة.

تسهيل حياة الإنسان.

لكن عبدالله كان يرى سؤالاً لا يظهر في التقارير:

هل يمكن أن يفقد الإنسان حريته وهو يعتقد أنه يحصل على مزيد من الراحة؟

في ليلة هادئة، جلست سارة مع عبدالله بعد انتهاء المؤتمر.

قالت:

“كنت أظن أن الخطر الأكبر هو أن يمنع أحد الإنسان من الاختيار.”

“لكنني بدأت أرى احتمالاً آخر.”

نظر إليها عبدالله.

فقالت:

“ماذا لو أصبح الإنسان لا يختار إلا ما تم تصميمه مسبقاً لاختاره؟”

صمت عبدالله.

لأنه شعر أن السؤال يختصر مرحلة كاملة من التاريخ.

عاد عبدالله إلى دفتري وكتب:

“كل عصر له الصنم الذي يختبره.”

“كان حجرًا في عصور قديمة.”

“وكان مألًا وسلطة في عصور أخرى.”

“أما عصرنا فقد يكون الصنم الجديد هو الاعتقاد بأن المعرفة وحدها تكفي.”

“وأن الحساب يستطيع أن يحل محل الحكمة.”

لم يكن عبدالله ضد العلم.

بل كان يرى العلم من أعظم قدرات الإنسان.

لكنه كان يؤمن أن العلم بلا بوصلة أخلاقية قد يتحول من وسيلة لتحرير الإنسان إلى وسيلة لإعادة تشكيله.

فالخطر ليس أن تصبح الآلة ذكية.

بل أن يصبح الإنسان مستعدًا للتخلي عن مسؤوليته لأنها أصبحت أذكى منه.

في نهاية اليوم، وقف عبدالله أمام المدينة.

شاشات في كل مكان.

بيانات تتحرك بلا توقف.

عالم متصل أكثر من أي وقت مضى.

لكن داخله بقي السؤال:

هل دخل الذكاء الاصطناعي عصر الحكم؟

أم أن الإنسان هو الذي سلّم مفاتيح قراره طوعاً؟

كتبت سارة في آخر تقرير لها:

“ربما لن تكون المعركة القادمة بين الإنسان والآلة.”

“بل بين نوعين من البشر.”

“إنسان يستخدم المعرفة ليزداد حكمة.”

“وإنسان يستخدم المعرفة ليعتقد أنه لم يعد بحاجة إلى الحكمة.”

وأغلقت دفترها.

فقد أدركت أن السؤال لم يعد:

من سيصنع المستقبل؟

بل:

أي إنسان سيصنعه؟

الفصل السادس عشر:

العملة التي لا يمكن الهروب منها

الفكرة المركزية للفصل:

في العالم الجديد لم تعد السيطرة تُمارس فقط عبر الجيوش والحدود، بل عبر النظام الاقتصادي الذي يحدد للإنسان كيف يعيش، ماذا يشتري، وما الذي يستطيع الوصول إليه.

يبدأ عبدالله باكتشاف أن العملة لم تعد مجرد وسيلة تبادل، بل أصبحت أداة لمعرفة الإنسان ومراقبته وتوجيه سلوكه.

وفي حوار مع مايكل أندرسون ودانيال كيم، يظهر الصراع:

هل النظام المالي العالمي الجديد جاء لحل مشاكل البشرية؟

أم أنه أصبح وسيلة لإنشاء مجتمع يمكن التحكم فيه بالكامل؟

الفصل:

كان عبدالله ينظر إلى الشاشة أمامه بصمت.

لم يكن ما يراه حرباً.

لم تكن هناك طائرات في السماء، ولا دبابات على الحدود.

لكن شيئاً أعمق كان يحدث.

العالم كان يتغير دون ضجيج.

لم تعد القوة لمن يملك أكبر جيش فقط، بل لمن يملك مفاتيح النظام الذي يتحرك داخله الجميع.

قال دانيال كيم وهو يشير إلى البيانات:

“في المستقبل لن يحمل الإنسان محفظة نقود، ولن يحتاج إلى بطاقات. كل شيء سيكون مرتبطاً بهويته الرقمية.”

ابتسم عبدالله وقال:

“وهل سيكون ذلك تحريراً للإنسان أم قيداً جديداً؟”

نظر إليه دانيال باستغراب.

“لماذا ترى دائماً الجانب المظلم؟ التكنولوجيا يمكن أن تقلل الجريمة، تمنع الفساد، وتجعل الاقتصاد أكثر عدلاً.”

أجابه عبدالله:

“المشكلة ليست في الأداة يا دانيال، بل في يد من يملك الأداة.”

تذكر عبدالله ما قرأه عن نشوء الأنظمة الكبرى عبر التاريخ.

كل إمبراطورية كانت تبحث عن وسيلة للسيطرة.

في الماضي كانت السيطرة بالأرض.

ثم بالذهب.

ثم بالنفط.

ثم بالمعلومات.

أما الآن، فقد أصبحت السيطرة بالهوية الرقمية نفسها.

فالإنسان الذي يمكن إيقاف معاملاته بضغطة زر، يمكن التحكم في حركته دون إطلاق رصاصة واحدة.

في تلك الليلة عاد عبدالله إلى أرشيفه القديم.

فتح ملفات جمعها خلال سنوات بحثه عن نشوء القوى السياسية والفكرية.

كان يبحث عن سؤال واحد:

هل الأنظمة الكبرى تظهر فجأة؟

أم أنها تتشكل عبر أفكار ومؤسسات وشبكات طويلة المدى؟

قرأ عن تطور الحركات القومية في أوروبا، وعن نشوء الصهيونية السياسية، وعن التيارات الدينية والسياسية التي تداخلت مع مشاريع النفوذ في القرنين التاسع عشر والعشرين.

كما قرأ عن تيارات فكرية وروحية مختلفة، من بينها بعض القراءات المرتبطة بالكبالات والتلمود، وعن كيفية توظيف بعض الأفكار الدينية أو الرمزية في مشاريع سياسية عبر التاريخ.

لكنه كتب في دفتره:

“ليس كل من ينتمي إلى دين أو ثقافة يحمل مشروعاً سياسياً واحداً. الخطر يبدأ عندما تتحول أي فكرة روحية إلى أداة سلطة.”

كان يعقوب بن شاول يقرأ ملاحظات عبدالله عندما قال:

“أنت تخطأ أحياناً بين الأفكار الدينية والمشاريع السياسية.”

رفع عبدالله عينيه إليه.

“وأنت أحياناً تفصل بينهما أكثر مما فعل التاريخ.”

سكت يعقوب قليلاً.

ثم قال:

“ربما المشكلة ليست في اليهودية أو المسيحية أو الإسلام. ربما المشكلة في الإنسان عندما يستخدم المقدس لخدمة القوة.”

كان هذا أول اتفاق بينهما.

لكن عبدالله كان يرى أن هناك سؤالاً أكبر.

فالصراع القادم، في نظره، لن يكون فقط بين أمم وأديان.

بل بين تصورين للإنسان:

تصور يرى الإنسان ككائن حر له روح وكرامة ومسؤولية أمام الله.

وتصور آخر يرى الإنسان كنظام يمكن تحسينه وإدارته بواسطة البيانات والخوارزميات.

كتب عبدالله في مذكراته:

“عندما تصبح العملة مرتبطة بالهوية، والهوية مرتبطة بالبيانات، والبيانات مرتبطة بالخوارزمية، فإن السؤال لم يعد: ماذا نملك؟

بل:

من يملكنا؟”

في نهاية الفصل، اجتمع عبدالله مع الشخصيات في مؤتمر دولي حول مستقبل البشرية.

عرض دانيال نموذجًا لنظام عالمي جديد:

عملة رقمية موحدة.

هوية عالمية.

ذكاء اصطناعي لإدارة الاقتصاد.

شبكة واحدة تمنع الفوضى.

صفق البعض.

لكن عبدالله بقي صامتًا.

فقد تذكر قصة قديمة.

قصة قوم ظنوا أنهم يستطيعون بناء برج يصل إلى السماء.

لم تكن المشكلة أنهم بنوا برجًا.

بل أنهم نسوا حدود الإنسان.

وقال في نفسه:

“ربما لا يبني الإنسان برج بابل من الحجارة هذه المرة...”

ربما يبنيه من الأرقام.”

الفصل السابع عشر

الهوية الرقمية: بطاقة الحياة الجديدة

كان عبدالله السالمي يعتقد أن أخطر التحولات في التاريخ هي تلك التي يسمع الإنسان صوتها قبل وصولها.

الحروب.

الثورات.

سقوط الإمبراطوريات.

ففي تلك اللحظات يعرف البشر أن شيئًا كبيرًا يحدث، فيحاولون المقاومة أو التكيف.

لكن القرن الجديد كان مختلفًا.

فالتحولات الكبرى لم تعد تأتي دائمًا بالدبابات أو الجيوش.

بل تأتي في شكل خدمات جديدة.

تطبيقات أسهل.

أنظمة أكثر سرعة.

وعود بحياة أكثر راحة.

حتى يصبح الإنسان، دون أن يشعر، جزءاً من نظام لم يشارك في تصميمه.

جلس عبدالله في إحدى القاعات الحديثة التي لا تشبه قاعات المؤتمرات القديمة.

لم تكن هناك ملفات ورقية.

ولا خزائن مغلقة.

كل شيء كان يتحرك عبر شاشات ضخمة.

البيانات.

الوجوه.

الخرائط.

القرارات.

كان المشهد يحمل رسالة واضحة:

العالم لم يعد يُدار فقط بالمعلومات التي يملكها الإنسان.

بل بالمعلومات التي يملكها النظام عن الإنسان.

وقف دانيال كيم أمام الشاشة.

كان متحمساً.

ليس كسياسي يريد السلطة، بل كمهندس يؤمن أن التكنولوجيا يمكن أن تقلل معاناة البشر.

ظهر على الشاشة طفل يولد في المستقبل.

قال دانيال:

“في الماضي كان الإنسان يبدأ حياته بمجموعة من الأوراق.”

“شهادة ميلاد.”

“رقم هوية.”

“سجلات منفصلة.”

“أما اليوم فنحن أمام فرصة تاريخية.”

تغيرت الصورة.

ظهرت هوية رقمية متكاملة.

وقال:

“هوية ترافق الإنسان منذ ولادته وحتى نهاية حياته.”

“تسهل العلاج.”

“تحمي الحقوق.”

“تمنع التزوير.”

“وتجعل الخدمات أكثر عدلاً وسرعة.”

نظر عبدالله إلى الشاشة طويلاً.

لم يكن يرى فيها مجرد تقنية.

كان يرى سؤالاً فلسفياً.

رفع رأسه وقال:

“دانيال، أنت تتحدث عن هوية الإنسان.”

“لكن من يملك هذه الهوية؟”

ابتسم دانيال.

“الإنسان نفسه.”

سأله عبدالله:

“وماذا يحدث إذا أصبح وصول الإنسان إلى هذه الهوية مرتبطاً بموافقة النظام؟”

ساد الصمت.

ثم قال:

“إذا أصبح النظام هو الذي يقرر من يستطيع السفر، والشراء، والعمل، والوصول إلى الخدمات...”

“فهل ما زال الإنسان يملك هويته؟”

أم أن النظام أصبح يملك مفتاح وجوده؟

كانت سارة النجار تكتب ملاحظاتها بصمت.

في السابق كانت ترى التكنولوجيا من زاوية الصحافة.

خبر جديد.

اختراع جديد.

تطور جديد.

لكنها بدأت ترى طبقة أخرى.

قالت:

“ربما أكبر تغيير ليس أن يعرف النظام معلوماتنا.”

“فالإنسان طوال التاريخ كان معروفًا من مجتمعه ودولته.”

ثم توقفت.

وأضافت:

“الخطر الحقيقي يبدأ عندما يصبح وجود الإنسان مرتبطاً بموافقة النظام عليه.”

نظر الجميع إليها.

وأكملت:

“ماذا يحدث إذا لم تعد الهوية مجرد تعريف للإنسان...”

“بل أصبحت شرطاً لمشاركته في الحياة؟”

لم يكن عبدالله ضد الهوية الرقمية.

كان يعرف أن المجتمعات تحتاج إلى تنظيم.

وأن الفوضى قد تظلم الإنسان أكثر من النظام.

لكن التاريخ علمه أن كل أداة قوية تحمل سؤالاً مزدوجاً:

كيف تخدم الإنسان؟

وكيف يمكن أن تستخدم ضده؟

فالسيف كان يحمي المدن.

لكنه أيضًا صنع الغزوات.

والصناعة بنت الحضارات.

لكنها أنتجت أدوات دمار.

والبيانات قد تساعد الإنسان.

لكنها قد تمنح من يملكها قدرة غير مسبقة على التأثير.

دخل مايكل أندرسون في الحوار.

قال:

“نحن نبالغ في الخوف.”

“العالم أصبح معقدًا. لا يمكن إدارة مليارات البشر بأنظمة قديمة.”

“الهوية الرقمية ستجعل الحياة أكثر أمنًا.”

“ستمنع الجرائم.”

“ستقلل الاحتيال.”

“وستساعد الحكومات على تقديم خدمات أفضل.”

نظر إليه عبدالله وقال:

“أنا لا أعارض النظام.”

“أنا أسأل عن حدود النظام.”

ثم أضاف:

“كل سلطة في التاريخ قالت إنها تريد حماية الإنسان.”

“لكن السؤال كان دائمًا:

من يحمي الإنسان من السلطة عندما تتجاوز حدودها؟”

لم يكن مايكل يرى نفسه جزءًا من مشكلة.

كان يؤمن أن الفوضى هي العدو الأكبر.

وفي داخله كان هناك خوف حقيقي:

الخوف من عالم لا يمكن السيطرة عليه.

أما عبدالله فكان يخشى شيئاً آخر:

أن يتحول الخوف من الفوضى إلى مبرر لمنح النظام قدرة لا يستطيع أحد إيقافها.

كان الصراع بينهما ليس حول الهدف.

بل حول الطريق.

عاد عبدالله إلى دراسة التاريخ.

لاحظ نمطاً تكرر عبر القرون.

المشاريع الكبرى لا تبدأ غالباً بشعارات مخيفة.

بل تبدأ بكلمات جميلة:

الأمن.

التنظيم.

العدالة.

التقدم.

لكن السؤال يظهر لاحقاً:

متى يصبح النظام أهم من الإنسان؟

ومتى تتحول الحماية إلى رقابة؟

ومتى تصبح الراحة ثمناً تدفعه الحرية؟

في المساء، التقى عبدالله بـيعقوب بن شاول في مكتبة قديمة.

قال يعقوب:

“أنت ترى أن العالم يتحرك نحو منظومة جديدة.”

أجاب عبدالله:

“أرى أن الإنسان يبتكر أدوات أقوى من أي وقت مضى.”

“لكن المشكلة ليست في قوة الأدوات.”

“بل في نضج الإنسان الذي يستخدمها.”

قال يعقوب:

“لا تجعل التاريخ قصة طرف واحد.”

“فكل حضارة شاركت في صناعة هذا العالم.”

ابتسم عبدالله:

“ولهذا أنا لا أبحث عن اسم فقط.”

“أنا أبحث عن الفكرة التي تتكرر.”

فتح عبدالله دفتره وكتب:

“في الماضي كان الإنسان يخشى أن يفقد أرضه.”

“ثم خاف أن يفقد ثروته.”

“أما اليوم فقد يبدأ بالخوف من فقدان هويته.”

“لأن الإنسان إذا فقد تعريفه لنفسه، فقد يفقد قدرته على مقاومة من يعيد تعريفه.”

وفي نهاية الفصل ظهر الإعلان على جميع الشاشات:

“من أجل عالم أكثر أمناً وتربطاً... يبدأ عصر الهوية الرقمية العالمية.”

خرج الناس إلى الشوارع.

بعضهم احتفل.

رأى فيها بداية عصر جديد.

علاج أسرع.

خدمات أسهل.

حياة أكثر تنظيماً.

وبعضهم وقف صامتاً.

لا لأنه يرفض المستقبل...

بل لأنه يسأل عن ثمنه.

وقفت سارة أمام الشاشة.

لم تعد ترى السؤال:

“هل الهوية الرقمية جيدة أم سيئة؟”

فهذا سؤال بسيط.

كتبت:

“السؤال الحقيقي هو:

إذا أصبحت حياتنا كلها قابلة للتسجيل والتحليل والتوجيه...”

“فمن يملك الإنسان؟”

“الإنسان الذي يستخدم النظام؟”

“أم النظام الذي يعرف الإنسان أكثر مما يعرف الإنسان نفسه؟”

أغلق عبدالله دفتره.

وكتب عنوان الصفحة الأخيرة:

الهوية الرقمية:

بطاقة الحياة الجديدة...

أم المفتاح الذي يجعل الإنسان يعيش داخل نظام لا يستطيع مغادرته؟

الفصل الثامن عشر:

السلام مقابل الحرية

لم يكن عبدالله يخشى الحروب فقط.

كان يخشى نوعاً آخر من الصراعات.

ذلك النوع الذي لا يبدأ بالرصاص، بل يبدأ بفكرة.

فكرة صغيرة تُزرع في عقول البشر:

أن هناك من وُلد ليحكم...

وأن هناك من وُلد ليُقاد.

في أحد المؤتمرات الدولية حول مستقبل البشرية، جلس عبدالله أمام مجموعة من المفكرين والسياسيين.

كان السؤال المطروح:

“ما الذي يحتاجه العالم أكثر في القرن القادم؟

الحرية؟

أم الأمن؟”

قال مايكل أندرسون:

“لقد أثبت التاريخ أن الفوضى أخطر من القيود. الشعوب تريد حياة آمنة. وإذا كان ثمن الأمن بعض التنازل عن الحرية، فربما يكون ذلك ثمنًا مقبولًا.”

نظر عبدالله إليه وقال:

“لكن التاريخ يثبت أيضًا أن كل نظام وعد الناس بالأمن المطلق انتهى في النهاية إلى التحكم بهم.”

رفع جوناثان ميلر صوته:

“المشكلة ليست في النظام، بل في القيم التي تحكمه. إذا كان النظام قائمًا على رؤية أخلاقية، فإنه يصبح وسيلة لحماية الإنسان.”

سأله عبدالله:

“ومن يحدد هذه الرؤية الأخلاقية؟”

ساد الصمت.

ثم قال:

“هنا يبدأ الخطر. عندما يعتقد الإنسان أن فهمه الخاص للحقيقة يعطيه حق التحكم بالآخرين.”

كان عبدالله قد درس عبر التاريخ كيف تتحول الأفكار النبيلة أحيانًا إلى أدوات للهيمنة.

الدين يمكن أن يصبح وسيلة رحمة وعدل.

لكن يمكن أن يستخدمه الإنسان لتبرير السلطة.

القومية يمكن أن تمنح الشعوب هوية.

لكن يمكن أن تتحول إلى اعتقاد بالتفوق.

العلم يمكن أن يحرر الإنسان.

لكن يمكن أن يصبح أداة للسيطرة.

المشكلة لم تكن في الفكرة نفسها.

بل في الإنسان عندما يضع نفسه فوق الآخرين.

قال يعقوب بن شأول:

“أنت تتحدث عن خطر الشعور بالتفوق، لكنه موجود في كل الحضارات.”

أجاب عبدالله:

“ولهذا أنا لا أتهم شعباً أو ديناً. أنا أبحث في نمط يتكرر في التاريخ.

كل جماعة عندما تعتقد أنها مختارة بطريقة تمنحها حق السيطرة على الآخرين، تبدأ بفقدان إنسانيتها.”

فتح عبدالله كتاباً قديماً ووضعهُ أمام الحاضرين.

قال:

“انظروا إلى التاريخ.

فرعون لم يبدأ بقوله: أنا ربكم.

بل بدأ بإقناع قومه أنه الأقدر على قيادتهم.

والطغاة عبر التاريخ لم يبدأوا بإعلان استعباد الناس.

بدأوا بوعدهم بالحماية.”

في نهاية اللقاء، عرض دانيال كيم نموذجاً للنظام العالمي الجديد.

قال:

“ربما لا نحتاج إلى إجبار الناس. إذا جعلنا النظام ذكياً بما يكفي، سيختار الناس ما هو أفضل لهم.”

ابتسم عبدالله وقال:

“لكن السؤال ليس: هل يستطيع النظام أن يعرف ما يحتاجه الإنسان؟

السؤال:

هل يحق له أن يقرر ذلك بدلاً منه؟”

في طريق عودته، كان عبدالله يفكر.

ربما أكبر معركة في المستقبل لن تكون بين دول.

بل بين مفهوميّن للإنسان.

إنسان له روح وحرية ومسؤولية أمام خالقه.

وإنسان يُعرّف فقط من خلال بياناته، وانتمائه، وفائدته للنظام.

كتب في مذكراته:

“السلام الذي يلغي الحرية ليس سلاماً.

والنظام الذي يلغي كرامة الإنسان ليس حضارة.

فأخطر برج يبنيه الإنسان ليس ذلك الذي يصل إلى السماء...

بل ذلك الذي يجعله ينسى أنه إنسان.”

الفصل التاسع عشر:

هل يحتاج العالم إلى الله؟

كان عبدالله يجلس في مكتبة قديمة تطل على المدينة الجديدة.

خلف الزجاج كانت الأبراج تلمع تحت أضواء لا تنطفئ، وطائرات بلا طيار تتحرك بصمت بين المباني، وشاشات عملاقة تعرض مؤشرات السعادة العالمية، ونسب انخفاض الجريمة، ومستوى التحكم في الأزمات.

كان العالم يعلن انتصاره.

لقد نجح الإنسان أخيراً في بناء نظام يقلل الفوضى، ويعيد تنظيم الحياة، ويجعل القرارات أكثر دقة من أي وقت مضى.

لكن عبدالله كان يرى سؤالاً مختلفاً.

لم يكن يسأل:

هل أصبح الإنسان أكثر قدرة؟

بل كان يسأل:

هل أصبح الإنسان أكثر حكمة؟

فتح عبدالله كتابه القديم الذي حمله معه طوال سنوات بحثه في تاريخ الحضارات، وكتب في الصفحة الأولى:

“كل حضارة سقطت لم تسقط عندما فقدت القوة، بل عندما ظنت أن القوة جعلتها فوق حدود الإنسان.”

عاد يتأمل قصص الأمم التي ذكرها القرآن.

لم تكن المشكلة في العلم.

ولم تكن المشكلة في البناء.

ولم تكن المشكلة في القوة.

ففرعون امتلك السلطة والنظام والجيش، لكنه أخطأ عندما تحول من حاكم إلى منازع للخالق:

﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾

لم يكن سقوطه بسبب ضعفه، بل بسبب وهمه أنه أصبح صاحب الحق المطلق.

ونمرود لم يكن مجرد ملك قوي، بل نموذجاً لإنسان واجه الحقيقة بالاستكبار، وظن أن امتلاكه للملك يجعله قادراً على التحكم في مصير الحياة والموت.

أما قصة أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود، والأمم التي سبقتهم، فقد كانت تكرر سؤالاً واحداً:

ماذا يحدث عندما يملك الإنسان القوة لكنه يفقد البوصلة الأخلاقية؟

دخل يعقوب بن شاول إلى الغرفة، وكان يحمل ملفاً تاريخياً.

قال:

“عبدالله، المشكلة أن البشر لم يتفقوا يوماً على معنى الله. كل حضارة قدمت تفسيرها، وكل دين يرى نفسه الأقرب للحقيقة. ربما يكون الحل هو تجاوز هذه الخلافات وبناء نظام إنساني عالمي.”

نظر إليه عبدالله وقال:

“ولكن السؤال ليس: هل يختلف البشر حول الله؟ السؤال هو: ماذا يحدث عندما يقرر الإنسان أن يستبدل المرجعية العليا بمرجعية من صنعه؟”

تدخل دانيال كيم، خبير الذكاء الاصطناعي:

“لكن الإنسان لا يريد عبادة التكنولوجيا. هو يريد فقط نظاماً أكثر عدلاً. إذا استطاعت الخوارزميات منع الحروب وتقليل المعاناة، فلماذا نرفضها؟”

ابتسم عبدالله.

“أنا لا أخاف من الآلة يا دانيال. أخاف من الإنسان الذي يستخدم الآلة وهو يظن أنه أصبح كاملاً.”

ساد الصمت.

ثم قال:

“المشكلة ليست في الذكاء الاصطناعي، بل في غياب السؤال الأخلاقي: من يحدد الخير؟ ومن يملك تعريف الإنسان؟”

في تلك اللحظة فهم الجميع أن الصراع القادم لن يكون بين التكنولوجيا والدين فقط.

بل بين رؤيتين للوجود.

رؤية ترى الإنسان ككائن مادي يمكن تحسينه بالعلم والسيطرة والتنظيم.

ورؤية ترى الإنسان روحاً ومسؤولية وأمانة، وأن قوته لا تعطيه الحق في تجاوز الحدود التي وضعها الخالق.

كان عبدالله يعرف أن التاريخ لا يعيد الأحداث نفسها.

فلا يوجد فرعون جديد يحمل التاج نفسه.

ولا نمرود جديد يبني المدينة نفسها.

لكن الأفكار تعود بأشكال جديدة.

واليوم لم يعد برج بابل يُبنى من الحجارة.

بل من:

البيانات.

والخوارزميات.

والقدرة على تعريف الحقيقة.

وفي نهاية الصفحة كتب عبدالله:

“أخطر لحظة في تاريخ الإنسان ليست عندما يصبح ضعيفاً، بل عندما يصبح قوياً لدرجة أنه ينسى أنه إنسان.”

الفصل العشرون:

الإنسان أمام المرأة

لم يكن عبدالله يخشى المستقبل.

كان يخشى اليوم الذي يتوقف فيه الإنسان عن طرح الأسئلة.

فالحضارات لا تبدأ بالسقوط عندما تخسر الحروب، ولا عندما تنهار اقتصاداتها، بل عندما تفقد قدرتها على مراجعة نفسها.

في تلك الليلة، كان العالم يحتفل بمرور عشر سنوات على إطلاق “النظام العالمي الذكي”.

نظام واحد أصبح يدير ملايين القرارات اليومية:

من يحصل على القرض؟

من يسافر؟

من يحصل على الوظيفة؟

ما الأخبار التي تصل إلى الناس؟

ما المنتجات التي تظهر أمامهم؟

لم يكن هناك شرطي يقف على الأبواب.

ولم تكن هناك سلاسل في الأيدي.

كان كل شيء يبدو اختيارياً.

وهنا بدأ السؤال الذي أرعب عبدالله:

هل الحرية التي لا يشعر الإنسان بفقدانها ما زالت حرية؟

وقف عبدالله أمام شاشة ضخمة في مركز الأبحاث العالمي.

ظهر عليها وجه بشري رقمي متطور.

قال الصوت:

“لقد انخفضت الحروب بنسبة 80٪، وانخفضت الجرائم بنسبة كبيرة، وتحسنت جودة الحياة. هل يوجد سبب لرفض نظام يحقق السعادة للبشر؟”

نظر عبدالله إلى الشاشة طويلاً.

ثم قال:

“السؤال ليس: هل يستطيع النظام أن يجعل الإنسان سعيداً؟

السؤال:

من يملك تعريف السعادة؟”

ساد الصمت.

فالسعادة التي يقيسها النظام كانت أرقاماً.

عدد ساعات العمل.

مستوى الدخل.

الصحة الجسدية.

الاستقرار النفسي.

لكن عبدالله كان يرى شيئاً لا يظهر في البيانات.

الروح.

المعنى.

الاختيار.

قال:

“الإنسان ليس مجرد مجموعة رغبات يمكن تنظيمها، ولا مجموعة أخطاء يمكن إصلاحها.”

في تلك اللحظة دخل دانيال كيم.

كان يحمل تقريراً جديداً عن مستقبل الذكاء الاصطناعي.

قال:

“عبدالله، ربما مشكلتك أنك تنظر إلى الإنسان كما كان في الماضي. العالم تغير. البشر تسببوا في الحروب والكراهية والفوضى. ربما يحتاج الإنسان إلى نظام أعلى منه.”

رفع عبدالله عينيه وقال:

“نظام أعلى من الإنسان؟”

أجاب دانيال:

“ليس بمعنى العبادة. بل بمعنى المرجعية. نظام يعرف أكثر، يحلل أكثر، ويقرر بشكل أفضل.”

ابتسم عبدالله بحزن.

“وهنا يبدأ السؤال القديم.”

اقترب من النافذة.

“كل عصر صنع صنمه الخاص. بعضهم صنعه من حجر، وبعضهم من ذهب، وبعضهم من قوة عسكرية. أما عصرنا فقد يصنع صنمه من المعرفة.”

تذكر عبدالله قصة برج بابل.

لم يكن الخطأ في البناء.

فالبناء بحد ذاته ليس خطيئة.

والعلم ليس عدواً للإنسان.

لكن المشكلة تبدأ عندما ينسى الإنسان حدود مكانته.

عندما يتحول الإنجاز إلى غرور.

والقدرة إلى استعلاء.

والاختراع إلى محاولة للسيطرة على كل شيء.

كتب عبدالله في مذكرته:

“ربما لا تكون معركة المستقبل بين الإنسان والآلة، بل بين إنسانيتنا ورغبتنا في أن نصبح شيئاً أكبر مما خلقنا له.”

في المساء اجتمع عبدالله مع الشخصيات التي رافقته في رحلته.

يعقوب بن شاول قال:

“التاريخ يثبت أن كل مشروع عظيم يبدأ بحلم. المشكلة ليست في الحلم، بل عندما يعتقد أصحاب الحلم أنهم يملكون الحق المطلق.”

جوناثان ميلر قال:

“لكن الإنسان عبر التاريخ بحث عن معنى يتجاوز وجوده.”

رد عبدالله:

“صحيح. ولكن السؤال: هل يبحث عن الله؟ أم يبحث عن نسخة من نفسه يضعها مكان الله؟”

ساد الصمت.

حتى المختلفون معه لم يجدوا إجابة سهلة.

خرج عبدالله إلى شوارع المدينة.

رأى ملايين البشر يمشون وهم يحملون أجهزة صغيرة تعرف عنهم أكثر مما يعرفون عن أنفسهم.

تذكر سؤالاً قديماً:

“ما الإنسان؟”

هل هو جسد يمكن تحسينه؟

هل هو عقل يمكن برمجته؟

هل هو رقم في نظام عالمي؟

أم أنه شيء أعمق من كل هذه الحسابات؟

وقف أمام واجهة زجاجية عاكسة.

رأى وجهه.

ورأى خلفه مدينة كاملة صنعها الإنسان.

ثم كتب:

“أخطر مرآة ليست التي تكشف شكل الإنسان، بل التي تكشف حقيقته.”

كان القرن الجديد قد أعطى الإنسان قوة لم يحلم بها أجداده.

لكن السؤال بقي:

عندما ينظر الإنسان إلى نفسه في مرآة القوة...

ماذا سيرى؟

إنساناً وصل إلى قمة الحضارة؟

أم مخلوقاً نسي الطريق الذي جاء منه؟

الجزء الثالث: برج بابل الجديد

لم يعد الإنسان في نهاية القرن الحادي والعشرين يبني أبراجه من الحجارة كما فعلت الأمم القديمة، بل أصبح يبنيتها من المعرفة، والبيانات، والخوارزميات، والشبكات التي تمتد حول الكوكب كله.

كان برج بابل القديم رمزاً لطموح الإنسان عندما أراد أن يصل إلى السماء بقوته، متجاوزاً حدود طبيعته البشرية. أما برج بابل الجديد فلم يعد مشروعاً معمارياً، بل مشروعاً حضارياً يقوم على فكرة أكثر تعقيداً: بناء نظام عالمي قادر على تنظيم حياة البشر، وتوجيه اختياراتهم، وإدارة تفاصيل وجودهم.

لم تعد القوة تُقاس فقط بعدد الجنود أو مساحة الأرض، بل بامتلاك مفاتيح المعرفة، والتحكم في تدفق المعلومات، والقدرة على تشكيل وعي الإنسان قبل أن يتخذ قراره.

في هذا العالم الجديد، أصبح الإنسان أمام سؤال لم يسبق أن واجهه بهذه الصورة:

هل ستصبح التكنولوجيا أداة لتحرير الإنسان، أم وسيلة لصناعة إنسان جديد يفقد علاقته بذاته وتاريخه ومعناه؟

كان عبدالله السالمي يرى أن التاريخ لا يعيد نفسه بالأشكال نفسها، لكنه يعيد الأسئلة الكبرى.

فكما ظنت أمم قديمة أن قوتها تمنحها الخلود، قد يظن الإنسان الحديث أن امتلاكه للعلم والتقنية يجعله قادراً على تجاوز كل الحدود.

لكن المشكلة لم تكن يوماً في امتلاك القوة، بل في تصور الإنسان أنه لم يعد بحاجة إلى مرجعية أخلاقية أعلى من ذاته.

وهنا يبدأ الصراع الحقيقي في الرواية:

ليس بين الماضي والمستقبل.

ولا بين الشرق والغرب.

بل بين رؤيتين للإنسان:

رؤية ترى أن الإنسان مخلوق مسؤول، وأن العلم يجب أن يخدم القيم والرحمة والعدل.

ورؤية ترى أن الإنسان يستطيع، من خلال المعرفة والقوة، أن يعيد تشكيل العالم وفق إرادته وحدها.

فهل سيكون برج بابل الجديد أعظم إنجاز في تاريخ البشرية؟

أم سيكون أعظم اختبار يواجه الإنسان منذ بداية وجوده؟

الفصل الحادي والعشرون:

الحكومة العالمية

لم يكن عبدالله السالمي يخشى من فكرة أن يتعاون البشر فيما بينهم، فقد كان يرى أن التعاون بين الأمم جزء من طبيعة الإنسان، وأن التاريخ نفسه قام على انتقال المعرفة والثقافات بين الشعوب.

لكن السؤال الذي كان يطارده لم يكن:

هل يحتاج العالم إلى نظام عالمي؟

بل:

من يملك هذا النظام؟ ولأي غاية يُستخدم؟

كان يجلس في مكتبه القديم، محاطاً بآلاف الكتب التي جمعها خلال نصف قرن من البحث. أمامه خريطة للعالم لم تكن تشبه الخرائط التي عرفها الإنسان قديماً.

لم تعد الحدود واضحة كما كانت.

لم تعد القوة تُقاس بعدد الجنود أو مساحة الأرض فقط.

كان هناك نوع جديد من السيطرة لا يظهر على الخرائط.

سيطرة على المعلومات.

على الاقتصاد.

على المعرفة.

وعلى الإنسان نفسه.

تذكر عبدالله كلمات أحد المفكرين الذين التقاهم في رحلته:

“العالم لم يعد بحاجة إلى إمبراطوريات تحتل الأرض، فالإمبراطوريات الجديدة ستملك العقول.”

ظل السؤال عالقاً في ذهنه.

هل كانت البشرية تسير نحو مرحلة من التعاون الحقيقي؟

أم نحو نظام عالمي تصبح فيه حرية الإنسان مرتبطة بموافقة منظومة أكبر منه؟

في أحد المؤتمرات الدولية، اجتمع عبدالله مع شخصيات تمثل رؤى مختلفة للعالم الجديد.

كان مايكل أندرسون، الإستراتيجي الأمريكي، يرى أن الفوضى العالمية لا يمكن السيطرة عليها إلا من خلال قيادة مركزية قوية.

قال له:

“لقد أثبت التاريخ أن العالم عندما يفقد قوة قيادية يدخل في الحروب. الإمبراطوريات السابقة لم تفشل لأنها كانت قوية، بل لأنها لم تكن تملك الأدوات المناسبة لإدارة العالم.”

ابتسم عبدالله وسأله:

“لكن ماذا يحدث عندما تصبح القوة مقتنعة بأنها تعرف مصلحة الجميع أكثر من الجميع؟”

سكت مايكل للحظة.

فهو لم يكن رجلاً شريراً.

كان يؤمن فعلاً أن النظام أفضل من الفوضى.

لكن عبدالله كان يرى أن أخطر اللحظات في التاريخ هي عندما يتحول الإيمان بالنظام إلى تبرير لإلغاء الإنسان.

في الجهة الأخرى من القاعة، كان لي وانغ، الفيلسوف الصيني، يقدم رؤية مختلفة.

قال:

“العالم القادم لن يكون أحادي القطب. عصر الهيمنة الواحدة انتهى. المستقبل سيكون للتوازن بين القوى.”

استمع عبدالله إليه باهتمام.

فهو لم يرَ في صعود أي أمة مشكلة بحد ذاته.

فالتاريخ عرف حضارات كثيرة صعدت ثم تراجعت.

لكن السؤال الحقيقي كان:

هل ستكرر القوى الجديدة أخطاء القوى القديمة؟

هل سيستبدل العالم مركزاً واحداً بمراكز متعددة تتنافس على السيطرة؟

أم أن البشرية ستتعلم أخيراً أن القوة لا تعني الحق؟

في تلك الليلة، عاد عبدالله إلى غرفته وفتح دفتر ملاحظاته.

كتب:

“كل الحضارات التي سقطت لم تسقط لأنها امتلكت القوة، بل لأنها فقدت السؤال الأخلاقي.”

تذكر فرعون.

لم تكن المشكلة أنه بنى دولة قوية.

بل أنه وصل إلى مرحلة رأى فيها نفسه فوق الحساب.

وتذكر أصحاب الحضارات الكبرى الذين ظنوا أن تقدمهم العلمي يجعلهم خالدين.

كان يرى أن الخطر الحقيقي لا يأتي من العلم.

ولا من التكنولوجيا.

ولا من التنظيم.

بل من اللحظة التي يعتقد فيها الإنسان أن قدرته تمنحه الحق في إعادة تعريف الخير والشر، والحياة والموت، والحرية والعبودية.

في عالم المستقبل، لم تكن الحكومة العالمية - كما تخيلها البعض - تحتاج إلى إعلان رسمي.

لم يكن هناك يوم تستيقظ فيه الشعوب فتجد راية جديدة فوق الأمم المتحدة.

بل كان التغيير أكثر هدوءًا.

بدأ بالتنسيق.

ثم بالاعتماد.

ثم بالحاجة.

حتى أصبحت الدول غير قادرة على إدارة ملفاتها الكبرى دون العودة إلى منظومات عالمية مشتركة.

الاقتصاد أصبح مرتبطاً بشبكات مالية عابرة للحدود.

الأمن أصبح مرتبطاً بالبيانات.

والهوية أصبحت مرتبطة بالأنظمة الرقمية.

وهنا ظهر السؤال الذي أرعب عبدالله:

إذا أصبح الإنسان جزءاً من نظام عالمي لا يستطيع الخروج منه، فهل ما زال يملك اختياره؟

لم يكن عبدالله يرى أن كل مشروع عالمي هو شر.

فالعالم يحتاج إلى التعاون.

والبشرية تحتاج إلى مواجهة التحديات المشتركة.

لكن الخطر، كما كان يعتقد، يبدأ عندما يحاول الإنسان بناء "برج بابل جديد".

ليس برجاً من الحجارة هذه المرة.

بل برجاً من المعرفة والقوة والتكنولوجيا.

برجاً يقول فيه الإنسان:

"أنا أستطيع أن أدير كل شيء".

وكان عبدالله يعرف أن التاريخ يحمل قانوناً ثابتاً:

كل حضارة وصلت إلى لحظة ظنت فيها أنها امتلكت المستقبل بالكامل، بدأت تفقد قدرتها على رؤية نهايتها.

وفي نهاية الصفحة كتب:

“المشكلة ليست في أن يحلم الإنسان بعالم أفضل...
المشكلة تبدأ عندما ينسى أن الإنسان ليس هو خالق العالم، بل مستخلف فيه.”

وكان السؤال الذي سيقوده إلى الفصل التالي:

**هل تستطيع التكنولوجيا أن تمنح الإنسان الجنة التي وعد بها نفسه؟
أم أنها ستبني له قفصاً لا يرى قضبانه؟**

سأعيد صياغة الفصل مع إدخال الصهيونية كفكرة سياسية وتاريخية داخل الصراع الفكري، وليس كاتهام جماعي أو عرقي، وبنفس النهج الذي اتفقنا عليه: الشخصيات تحمل رؤى مختلفة، وكل فكرة تُناقش من خلال دوافعها ونتائجها.

الفصل الثاني والعشرون

الدين الجديد بلا إله

لم يكن عبدالله السالمي يخشى اختلاف البشر في العقائد والأفكار.

فخلال سنوات دراسته للتاريخ والحضارات، أدرك أن الاختلاف كان دائماً جزءاً من رحلة الإنسان.

الحضارات لم تتقدم لأنها ألغت الأسئلة.

بل لأنها واجهتها.

لكن السؤال الذي بدأ يطارده في السنوات الأخيرة كان مختلفاً:

هل يمكن أن يظهر في العالم نظام جديد يؤدي وظائف الدين، دون أن يعلن نفسه ديناً؟

نظام لا يملك معابد.

ولا كتباً مقدسة.

ولا أنبياء.

لكنه يملك:

رموزه.

ومقدساته الجديدة.

ومفاهيمه الخاصة عن الخير والشر.

ومن يحدد ما يجب أن يؤمن به الإنسان وما يجب أن يرفضه.

في إحدى محاضراته، وقف عبدالله أمام مجموعة من الباحثين وقال:

“عندما يرفض الإنسان الإيمان بمرجعية أعلى منه، فإنه لا يتوقف بالضرورة عن البحث عن معنى.”

“فالإنسان لا يستطيع العيش بلا معنى.”

ثم كتب على اللوح:

العلم.

القومية.

الدولة.

السوق.

الأيدولوجيا.

التكنولوجيا.

وقال:

“هذه الأشياء ليست مشكلة بحد ذاتها.”

“فهي أدوات صنعها الإنسان.”

“لكن الخطر يبدأ عندما تتحول الأداة إلى مرجعية مطلقة.”

“عندما يصبح الإنسان خادماً لما صنعه بيده.”

كان دانيال كيم يجلس في الصف الأول.

لم يكن معترضاً.

بل كان يفكر.

بعد انتهاء المحاضرة اقترب من عبدالله وقال:

“ربما ترى الأمر من زاوية روحية، لكن ماذا لو استطاعت التكنولوجيا أن تحقق ما فشلت فيه الأديان والسياسات؟”

“ماذا لو قللت الحروب؟”

“ماذا لو عالجت الأمراض؟”

“ماذا لو جعلت العالم أكثر عدلاً؟”

ابتسم عبدالله.

وقال:

“سيكون ذلك إنجازًا عظيمًا.”

ثم أضاف:

“لكن السؤال الأهم ليس: ماذا تستطيع التكنولوجيا أن تفعل؟”

“بل:

من يحدد الهدف الذي ستستخدم من أجله؟”

في أبحاثه، عاد عبدالله إلى دراسة المشاريع الكبرى التي غيرت التاريخ.

لم يكن يبحث عن الأسماء فقط.

بل عن الأنماط.

لاحظ أن كثيرًا من المشاريع البشرية تبدأ بسؤال إنساني:

الخوف.

البحث عن الأمان.

الرغبة في البقاء.

صناعة مستقبل أفضل.

لكن مع مرور الزمن قد تتحول الفكرة إلى قوة تبحث عن حماية نفسها.

وهنا عاد عبدالله إلى دراسة الصهيونية كإحدى الظواهر السياسية الكبرى في العصر الحديث.

لم يرها مجرد حدث منفصل عن تاريخها.

بل رأى أنها نشأت داخل سياق عالمي مليء بصعود القوميات الأوروبية، وأزمات الهوية، وتجارب الاضطهاد التي عاشتها جماعات يهودية في مناطق مختلفة من أوروبا.

كان يعقوب بن شاول دائمًا يذكره بهذه النقطة.

قال له ذات مرة:

“لا يمكنك فهم أي مشروع تاريخي إذا تجاهلت الخوف الذي ولد منه.”

كان عبدالله يفهم هذا الجانب.

لكنه كان يطرح سؤالاً آخر:

“هل تستطيع أي حركة ولدت من تجربة ألم أن تحافظ على بعدها الأخلاقي عندما تمتلك القوة؟”

كان يعقوب يعيش صراعًا داخليًا معقدًا.

فهو مؤرخ يهودي درس معاناة شعبه عبر القرون.

كان يعرف معنى الخوف من الاضطهاد.

لكنه كان يعرف أيضًا أن التاريخ يضع أمام كل مشروع سؤالاً صعباً:

هل تبقى الذاكرة وسيلة لحماية الإنسان؟

أم تتحول إلى مبرر دائم لاستخدام القوة؟

في إحدى جلساتها، قال عبدالله ليعقوب:

“ربما أخطر لحظة في التاريخ ليست عندما يكون الإنسان ضعيفاً.”

“بل عندما ينتقل من الضعف إلى القوة، ثم ينسى الأسئلة التي كان يطرحها عندما كان ضعيفاً.”

صمت يعقوب.

لأنه أدرك أن السؤال لا يتعلق بالصهيونية وحدها.

بل بكل مشروع بشري يصل إلى مرحلة النفوذ.

دخل جوناثان ميلر إلى الحوار.

كان يرى التاريخ من منظور ديني مختلف.

قال:

“المشكلة ليست فقط في السياسة.”

“بل في محاولة بعض البشر بناء عالم جديد دون مرجعية تتجاوز الإنسان.”

نظر عبدالله إليه وقال:

“وهنا يعود السؤال القديم.”

“هل يستطيع الإنسان أن يصنع نظاماً أخلاقياً كاملاً إذا جعل نفسه المرجعية النهائية؟”

كانت سارة النجار تستمع.

لم تعد تنتقل الحوار كصحفية فقط.

بل أصبحت تبحث عن السؤال خلف السؤال.

قالت:

“لكن أليس هناك خطر آخر؟”

نظر الجميع إليها.

قالت:

“كل طرف يعتقد أنه يحمل الحقيقة.”

“كل مشروع يقول إنه يريد إنقاذ الإنسان.”

“فكيف نعرف متى يتحول إنقاذ الإنسان إلى السيطرة عليه؟”

ساد الصمت.

لأن السؤال لم يكن عن طرف واحد.

بل عن طبيعة الإنسان نفسه.

فتح عبدالله دفتره وكتب:

“قد لا يكون الدين الجديد الذي سيواجه الإنسان في المستقبل ديناً معلناً.”

“قد يكون مجموعة أفكار تجعل الإنسان يؤمن بأن قدرته تكفي.”

“أن العلم يغني عن الحكمة.”

“وأن القوة تستطيع أن تصنع المعنى.”

وتذكر قصة برج بابل.

لم يرها مجرد قصة عن بناء مرتفع.

بل رمزاً لمحاولة الإنسان أن يصل إلى حدود ليست له.

ليس لأنه يبحث عن الله...

بل لأنه يريد أن يثبت أنه لم يعد يحتاج إليه.

في نهاية الفصل، كتب عبدالله:

“الصراع القادم لن يكون فقط بين أديان مختلفة.”

“ولا بين حضارات متنافسة.”

“بل بين تصورين للإنسان.”

“إنسان يرى نفسه صاحب قدرة ومسؤولية أمام خالقه.”

“وإنسان يرى نفسه قادراً على إعادة تعريف الحياة والإنسان والمعنى بالكامل.”

في تلك الليلة وصلت رسالة مشفرة من يعقوب.

فتح عبدالله الرسالة.

كانت عبارة عن وثيقة قديمة.

عنوانها:

“من يملك تعريف الإنسان... يملك مستقبل العالم.”

قرأ عبدالله الكلمات مرة أخرى.

وشعر أن السؤال الحقيقي لم يعد:

من يملك الأرض؟

ولا من يملك القوة؟

بل:

من يملك الحق في أن يحدد معنى الإنسان؟

وفي تلك اللحظة أدرك أن برج بابل الجديد لم يُبنَ من الحجارة.

بل من الأفكار.

ومن يملك الأفكار...

قد يملك المستقبل.

الفصل الثالث والعشرون:

الإنسان المعدل

لم يكن عبدالله يخشى التكنولوجيا.

بل كان من أكثر الناس الذين أدركوا قوتها قبل كثيرين.

كان يرى أن العلم في ذاته ليس عدوًا للإنسان، وأن المعرفة كانت دائمًا إحدى أعظم نعم الله على البشرية.

لكن ما كان يقلقه لم يكن ما يستطيع الإنسان أن يفعله، بل السؤال الأقدم:

هل كل ما يستطيع الإنسان فعله يجب أن يفعله؟

في قاعة زجاجية مرتفعة وسط مدينة لم تعد تشبه المدن القديمة، وقف عبدالله أمام شاشة ضخمة تعرض نموذجًا جديدًا للإنسان.

لم يكن ذلك إنسانًا آليًا كما تخيلته أفلام الماضي، بل كان شيئًا أكثر تعقيدًا.

إنسان يحمل شريحة داخل جسده، وذاكرة مدعومة بالذكاء الاصطناعي، وقدرات عقلية محسّنة، وأجهزة تراقب صحته وأفكاره وانفعالاته.

قال دانيال كيم وهو ينظر إلى النموذج بإعجاب:

“لقد وصلنا إلى مرحلة لم يعد فيها الإنسان مضطراً لقبول حدود الطبيعة. المرض يمكن التنبؤ به قبل ظهوره، الذاكرة يمكن تعزيزها، القدرات العقلية يمكن تطويرها.”

ثم ابتسم وأضاف:

“ربما هذه هي المرة الأولى التي يصبح فيها الإنسان قادراً على تحسين نفسه بنفسه.”

ظل عبدالله صامتاً للحظات.

لم يكن يعارض التقدم.

لكنه كان يبحث دائماً عن السؤال الذي يأتي بعد النجاح.

قال:

“ولكن عندما يبدأ الإنسان بتغيير جوهره، هل يبقى السؤال: ماذا نستطيع أن نفعل؟

أم يصبح السؤال:

ماذا نبقى بعد أن نغير أنفسنا؟”

في تلك الليلة عاد عبدالله إلى مكتبه القديم.

كانت على الطاولة أمامه كتب عن الحضارات القديمة، ونسخ من نصوص دينية، ودراسات عن صعود وسقوط الإمبراطوريات.

توقف عند صفحة كان قد كتب عليها منذ سنوات:

“كل حضارة تصل إلى مرحلة تعتقد فيها أنها تجاوزت حدود الإنسان، تبدأ في فقدان إدراكها لضعفها.”

تذكر قصص الأمم التي تحدث عنها القرآن.

لم تكن المشكلة عند تلك الأمم في امتلاك القوة.

ففرعون امتلك جيشاً وسلطة.

وقارون امتلك المال.

وأصحاب الحضارات السابقة امتلكوا العلم والبناء.

لكن لحظة السقوط بدأت عندما تحولت القوة من وسيلة إلى غاية، ومن نعمة إلى شعور بالاستغناء عن الخالق.

لم يكن السؤال عند عبدالله:

هل سيصبح الإنسان أقوى؟

بل:

هل سيصبح الإنسان أكثر حكمة؟

في اجتماع دولي حول مستقبل البشرية، جلس عبدالله بين مفكرين من مختلف الحضارات.

كان الجميع يتحدث عن نهاية عصر الإنسان القديم.

قال أحد العلماء:

“الإنسان الحالي ليس النسخة النهائية. نحن في بداية مرحلة جديدة.”

وقال آخر:

“التطور القادم لن يكون تطوراً طبيعياً، بل تطوراً نصنعه نحن.”

كانت الكلمات تبدو مثل حلم قديم تحقق.

لكن عبدالله شعر بشيء آخر.

شعر أن البشرية تقف أمام سؤال أخلاقي لم تستعد له بعد.

لأن الإنسان عندما يغير أدواته، يستطيع أن يسأل:

كيف نستخدمها؟

لكن عندما يغير تعريفه لنفسه، يصبح السؤال:

من يحدد معنى الإنسان؟

بعد انتهاء المؤتمر، التقى عبدالله بمايكل أندرسون.

قال له مايكل:

“ربما أنت تنظر إلى الأمر من زاوية دينية، لكن العالم يحتاج إلى حلول. إذا استطعنا تقليل العنف، وإزالة الأمراض، وتحسين قدرات البشر، فلماذا نخاف؟”

نظر عبدالله إليه وقال:

“لأن التاريخ يخبرنا أن أخطر اللحظات ليست عندما يمتلك الإنسان القوة، بل عندما يقتنع أنه يمتلك الحكمة الكافية لاستخدامها دون حدود.”

سكت مايكل قليلاً.

ثم قال:

“ولكن ماذا لو كان هذا هو طريق تطور البشرية؟”

أجابه عبدالله:

“التطور الذي يفقد الإنسان إنسانيته قد يكون تقدماً في القدرة، لكنه تراجع في المعنى.”

في الأيام التالية بدأ عبدالله يلاحظ تحولاً أعمق.

لم تعد القضية مجرد تحسين الجسد أو علاج المرض.

بدأ الحديث عن إنشاء طبقة جديدة من البشر:

الأكثر نكاً.

الأطول عمراً.

الأكثر قدرة على العمل.

وبدأ السؤال الذي كان يخشاه يظهر:

إذا أصبح تحسين الإنسان متاحاً، فمن يستطيع الحصول عليه؟

هل سيكون حقاً للجميع؟

أم سيصبح امتيازاً لمن يملك المال والنفوذ؟

وهل ستظهر طبقة جديدة ترى نفسها أكثر تطوراً من بقية البشر؟

كتب عبدالله في مذكراته:

“الخطر ليس في أن يكتشف الإنسان أسرار الحياة.

فالإنسان منذ البداية يبحث ويتعلم ويبني.

الخطر عندما يتحول الاكتشاف إلى غرور.

وعندما يظن الإنسان أن قدرته على تغيير الخلق تعني أنه أصبح صاحب الحق المطلق في تحديد قيمة البشر.”

ثم أغلق دفتره.

كان يعلم أن المعركة القادمة لن تكون فقط بين دول.

ولا بين جيوش.

بل بين رؤيتين للإنسان:

رؤية ترى الإنسان ككائن مادي يمكن تطويره بلا حدود.

ورؤية ترى أن الإنسان مهما بلغ من العلم، يبقى مخلوقاً له حدود ومسؤولية ومعنى.

وفي تلك اللحظة أدرك عبدالله أن برج بابل الجديد لم يُبنَ من الحجارة هذه المرة.

بل من فكرة أخطر:

أن الإنسان يستطيع أن يعيد تعريف نفسه... ثم يعيد تعريف العالم.

ويبقى السؤال معلقاً:

عندما يصنع الإنسان إنساناً جديداً... من سيصنع قلبه؟

الفصل الرابع والعشرون

نهاية الحدود

أغلق عبدالله السالمي آخر ملف كان يراجع، ثم اتجه نحو النافذة المطلة على المدينة.

كانت الأبراج الزجاجية تعكس ضوء الغروب، والطائرات المسيّرة تعبر السماء بهدوء، بينما تتحرك آلاف السيارات وفق أنظمة ذكية لا يشعر بها أحد.

ابتسم ابتسامة خفيفة، ثم قال لنفسه:

“كم يبدو العالم أكثر تنظيمًا... وكم أصبح أكثر تعقيدًا.”

عاد إلى مكتبه، وأخرج خريطة قديمة تعود إلى أوائل القرن العشرين، ثم وضع بجانبها خريطة رقمية حديثة.

كانت الحدود السياسية لا تزال موجودة.

لكن شيئاً آخر كان قد تغير.

قال بصوت خافت:

“ربما لم تعد الحدود هي التي تحدد القوة.”

في اليوم التالي، التقى بالفيلسوف الصيني لي وانغ.

وبينما كانا يسيران في حديقة هادئة، سأل عبدالله:

“هل تعتقد أن الدولة ستبقى كما عرفها الإنسان طوال القرون الماضية؟”

ابتسم لي وانغ وقال:

“الدول لا تختفي فجأة... لكنها قد تتغير حتى لا يعود الناس يشعرون بأنها هي من يدير حياتهم.”

نظر إليه عبدالله باهتمام.

فأكمل لي وانغ:

“في الماضي، كانت الدولة تسيطر على الأرض.

ثم أصبحت تسيطر على الاقتصاد.

أما اليوم، فمن يملك البيانات، وشبكات الاتصال، والمنصات الرقمية، يستطيع أن يؤثر في حياة الناس، حتى لو لم يحكم أرضهم.”

ظل عبدالله صامتاً.

كان يعلم أن ما يقوله الرجل ليس خيلاً.

فالإنسان أصبح يحمل في جيبه جهازاً يعرف مكانه، وما يشتريه، وما يقرأه، وما يخشاه، وحتى ما قد يختاره غداً.

وفي المساء، التقى بمايكل أندرسون.

قال مايكل وهو يقلب تقريراً عن الاقتصاد العالمي:

“العالم لم يعد يحتفل أن تعمل كل دولة وحدها. الإرهاب، والأوبئة، والأزمات المالية، وتغير المناخ... كلها قضايا تتجاوز الحدود.”

هز عبدالله رأسه موافقاً، ثم سأله:

“إذا أصبحت إدارة العالم مشتركة... فمن يضع القواعد؟”

لم يجب مايكل مباشرة.

فاكتفى بالقول:

“ذلك هو السؤال الذي يشغل الجميع.”

لكن عبدالله لم يكن يبحث عن ضرورة التعاون بين الدول.

كان يبحث عن الجهة التي ستملك حق اتخاذ القرار عندما تصبح القرارات عالمية.

وفي تلك الليلة، عاد إلى مذكراته القديمة.

فتح الصفحة الأولى التي كتبها قبل سنوات.

قرأ بصمت:

“كل حضارة تبدأ بتوسيع مساحة الحرية... ثم تنتهي عندما يصبح الإنسان معتمداً بالكامل على النظام الذي صنعه.”

أغلق الدفتر، ثم رفع رأسه.

لقد أدرك أن العالم لم يعد ينتقل فقط من إمبراطورية إلى أخرى.

بل من سلطة الأرض...

إلى سلطة الشبكات.

وفي الأسبوع التالي، زار يعقوب بن شاول في مكتبة قديمة.

كان يعقوب يراجع وثائق تعود إلى بدايات القرن العشرين.

قال وهو يرفع إحدى الوثائق:

“تعلمت من التاريخ أن المشاريع الكبرى لا تنتصر لأنها الأقوى فقط.”

سأله عبدالله:

“فماذا تنتصر إذن؟”

أجاب يعقوب:

“لأنها تكون مستعدة عندما تتغير حركة التاريخ.”

ساد الصمت.

ثم عاد عبدالله إلى الخرائط الممتدة أمامه.

من الثورة الصناعية...

إلى الحرب العالمية الأولى...

إلى سقوط الإمبراطوريات...

إلى النظام الدولي...

إلى الثورة الرقمية...

لم تكن الأحداث متشابهة.

لكن شيئاً واحداً كان يتكرر.

كل تحول كبير كان يعيد توزيع القوة.

وكل نظام جديد كان يخلق أدوات نفوذ لم تكن موجودة من قبل.

كتب عبدالله في دفتره:

“ليست المشكلة أن العالم أصبح أكثر اتصالاً...

بل أن الإنسان قد لا يعرف من يملك مفاتيح هذا الاتصال.”

ثم أضاف بعد لحظة:

“التاريخ يعلمنا أن الحدود قد تسقط.

لكن الفراغ لا يبقى طويلاً.

فالسؤال ليس:

هل ستختفي الحدود؟

بل:

من سيملأ الفراغ بعد اختفائها؟”

وقف أمام النافذة مرة أخرى.

كانت المدينة تنبض بالحياة.

لكنها كانت مرتبطة، في اللحظة نفسها، بشبكات تمتد عبر القارات.

ابتسم ابتسامة مترددة، ثم كتب آخر سطر في الصفحة:

“كانت الإمبراطوريات القديمة تبني الأسوار حول المدن...

أما العالم الجديد...

فقد يبني أسواره داخل الإنسان نفسه.”

الفصل الخامس والعشرون

عبدالله في مواجهة النظام

لم يكن أكثر ما يخشاه عبدالله السالمي أن يكتشف وثيقة جديدة...

بل أن يكتشف أنها تهدم جزءاً مما آمن به سنوات طويلة.

في تلك الليلة، كانت أوراقه تغطي المكتب.

خرائط.

رسائل.

محاضر مؤتمرات.

ومذكرات تعود إلى أكثر من قرن.

كان يراجع المسار الذي بدأ بفكرة صغيرة، ثم تحول إلى مشروع سياسي، ثم إلى مؤسسات، ثم إلى دولة أصبحت تمتلك تأثيراً يتجاوز حدودها.

لم يكن ينظر إلى ذلك بوصفه حدثاً منفصلاً.

بل بوصفه رحلة طويلة، تتقدم فيها الأفكار خطوة بعد أخرى، حتى تصبح واقعاً يظنه الناس طبيعياً.

رفع قلمه وكتب:

“المشاريع الكبرى لا تولد يوم تنتصر... بل يوم تبدأ في بناء الإنسان الذي يحملها.”

وفي صباح اليوم التالي، قصد يعقوب بن شأؤول.

كانت المكتبة القديمة تفرق في صمتها المعتاد.

أخرج يعقوب ملفاً أصفر مهترئاً، ووضعه أمام عبدالله.

قال:

“اختلف الناس كثيراً حول الحركة الصهيونية، لكن هناك حقيقة يصعب تجاهلها.”

نظر إليه عبدالله.

فأكمل:

“لقد نجحت في تحويل فكرة إلى مؤسسات، ومؤسسات إلى دولة، ودولة إلى مشروع يمتلك قدرة مستمرة على التكيف مع تغير الزمن.”

لم يعلق عبدالله.

كان يدرك أن فهم التاريخ لا يعني تبني مواقفه، ولا إنكار قدرة خصومه.

قال بهدوء:

“القوة لا تُقاس فقط بما تحقّقه في النهاية... بل بالطريق الذي سلكته حتى وصلت.”

ابتسم يعقوب وقال:

“ولهذا لا يقرأ المؤرخون النتائج وحدها... بل يدرسون البناء الذي سبقها.”

خرج عبدالله من المكتبة، لكن الكلمات بقيت ترافقه.

كان يشعر أن السؤال الحقيقي لم يعد عن الماضي.

بل عن المستقبل.

كيف تحافظ أي دولة على قوتها بعد أن تبلغها؟

وكيف يتحول النفوذ إلى نظام؟

وفي المساء، التقى بمايكل أندرسون.

قال مايكل وهو يتابع خريطة تفاعلية على الشاشة:

“كل قوة صاعدة تحاول أن تجعل النظام الدولي أكثر توافقاً مع مصالحها. هكذا فعلت الإمبراطوريات القديمة، وهكذا تفعل الدول الكبرى اليوم.”

سأل عبدالله:

“وأين يقف الحد الفاصل بين حماية المصالح... وإعادة تشكيل العالم وفق رؤية طرف واحد؟”

ساد الصمت.

ثم قال مايكل:

“لا أظن أن أحداً يملك جواباً نهائياً.”

لكن عبدالله لم يكن يبحث عن جواب.

كان يبحث عن النمط الذي يتكرر.

عاد إلى مكتبه.

وأخذ يرسم على السبورة خطاً زمنياً طويلاً.

فكرة...

تنظيم...

تحالفات...

دعم دولي...

دولة...

قوة...

نفوذ...

ثم توقف.

نظر إلى الخط طويلاً.

وقال:

“كل مشروع ناجح يمر بهذه المراحل... لكن السؤال ليس كيف يبدأ المشروع.”

ثم وضع دائرة حول آخر كلمة.

“السؤال هو: ماذا يحدث عندما يمتلك القوة؟”

وفي أثناء ترتيبه للأوراق، سقط ملف قديم لم يكن قد فتحه منذ سنوات.

التقطه دون اهتمام.

لكن إحدى الوثائق في داخله جعلته يتجمد في مكانه.

قرأها مرة.

ثم أعاد قراءتها.

ثم للمرة الثالثة.

كانت بعض المعلومات الواردة فيها لا تتسجم مع استنتاجات كتبها بنفسه قبل سنوات.

شعر بثقل غريب.

وللمرة الأولى منذ بدأ رحلته، لم يكن يخشى أن تكون الوثيقة صحيحة...

بل كان يخشى أن تكون فعلاً صحيحة.

دخلت سارة إلى الغرفة.

رأته جالساً بلا حركة.

قالت:

“هل حدث شيء؟”

رفع رأسه ببطء.

ثم ابتسم ابتسامة متعبة.

وقال:

“نعم...”

“اكتشفت أنني كنت أبحث عن الحقيقة...”

“لكنني بدأت، من دون أن أشعر، أدافع عن بعض استنتاجاتي أكثر مما أبحث عنها.”

اقتربت منه.

وسألته:

“وماذا ستفعل الآن؟”

نظر إلى الأوراق المكدسة أمامه.

ثم أمسك ملفاً كاملاً، ووضعه جانباً.

وقال:

“إذا كانت الحقيقة تطلب مني أن أبدأ من جديد... فسأبدأ.”

ثم مزق عشرات الصفحات التي كتبها خلال الأشهر الماضية.

راقبته سارة في صمت.

وأدركت أن أصعب معركة يخوضها الباحث...

ليست مع الوثائق.

ولا مع خصومه.

بل مع نفسه.

جلس عبدالله من جديد.

فتح دفتره.

وكتب ببطء:

“التاريخ لا يحاكم الأفكار عندما تكون ضعيفة...”

بل عندما تمتلك القوة.”

أغلق الدفتر.

ثم رفع بصره نحو خريطة العالم المضيئة أمامه.

لم يعد يرى حدود الدول فقط.

كان يرى خرائط أخرى.

خرائط المال.

والمعلومات.

والتكنولوجيا.

وشبكات النفوذ التي لا تظهر في كتب الجغرافيا.

وعندها أدرك أن رحلته لم تكن مواجهة مع دولة...

ولا مع أيديولوجيا...

ولا مع نظام سياسي بعينه.

كانت مواجهة مع سؤال ظل يلاحقه منذ بداية الطريق:

هل يستطيع الإنسان أن يبني نظاماً بالغ القوة... دون أن يفقد المعنى الذي يجعله إنساناً؟

الفصل السادس والعشرون

عودة فرعون والنمرود... وبابل الجديدة

كان عبدالله السالمي يقلب صفحات التاريخ، لا بحثاً عن أسماء المنتصرين، بل بحثاً عن السنن التي تتكرر خلف الأسماء.

كان يؤمن أن القرآن لم يذكر فرعون والنمرود والأمم السابقة لمجرد تسجيل وقائع مضت، بل ليكشف نمطاً إنسانياً يتكرر كلما اجتمعت القوة بالطموح، وغاب التواضع أمام القدرة.

إنسان يُمنح القوة... فينسى حدودها.

ويُعطى أسباب التمكين... فيتوهم أنه مصدرها.

ويبني نظاماً ناجحاً... ثم يظن أن الزمن لن يستطيع هدمه.

توقف عبدالله طويلاً عند تاريخ بني إسرائيل.

لم يكن يقرأ القصة بوصفها قصة شعب بعينه، بل بوصفها رحلة إنسانية مليئة بالعبر.

شعب ذاق مرارة الاستعباد.

وشهد صراع الأنبياء مع الطغيان.

وحملت كتبه تحذيرات متكررة من الغرور والانحراف عن العدل.

لكن سؤالاً ظل يطارده:

“إذا عرف الإنسان معنى الظلم، فهل يصبح أكثر رحمة عندما يمتلك القوة؟ أم أن القوة لا تغيّر الإنسان، بل تكشف ما كان مختبئاً في داخله؟”

واصل عبدالله أبحاثه، وانتقل إلى دراسة الصهيونية السياسية.

لم يكن يبحث في اليهودية كدين، فقد أدرك أن تاريخ اليهود، كما تاريخ غيرهم، عرف مدارس واتجاهات ومواقف متباينة.

كان اهتمامه منصباً على المشروع السياسي الحديث؛ ذلك المشروع الذي استطاع أن يحول هوية تاريخية إلى مشروع قومي، ثم إلى دولة تمتلك أدوات القوة العسكرية والسياسية.

وكتب في دفتره:

“هل استطاع هذا المشروع أن يحول ذاكرة الألم إلى رسالة أخلاقية للعالم؟ أم أن بعض تياراته وقعت في الامتحان نفسه الذي سقطت فيه أمم كثيرة قبلها؟”

كان عبدالله يرى أن أخطر لحظة في تاريخ أي مشروع ليست لحظة ضعفه...

بل لحظة انتصاره.

فالضعيف يطلب العدالة لأنه يحتاج إليها.

أما القوي، فقد يغريه الشعور بالقدرة فيعيد تعريف العدالة بما يخدم مصالحه.

وهنا تبدأ المعضلة الكبرى:

كيف يتحول من كان يبحث عن الحماية... إلى من يمتلك القدرة على فرض إرادته على الآخرين؟

وفي أحد اللقاءات قال عبدالله ليعقوب بن شأول:

“المشكلة ليست في أن يبحث شعب عن الأمان بعد تاريخ من الألم، فهذا حق إنساني لا خلاف عليه. لكن المشكلة تبدأ عندما يتحول الخوف التاريخي إلى قناعة بأن القوة تمنح صاحبها حقاً فوق القانون، أو أن الآخرين أقل استحقاقاً للعدل.”

ابتسم يعقوب وقال:

“لكن كل أمة تروي تاريخها بطريقة تجعلها ترى نفسها الضحية.”

أجاب عبدالله بهدوء:

“ولهذا لا يكون الاختبار الحقيقي في تذكر الألم... بل في الطريقة التي يتصرف بها الإنسان عندما يصبح قادراً على صناعة الألم لغيره.”

ساد الصمت.

لكن عبدالله كان يشعر أن السؤال لم يعد متعلقاً بالماضي وحده.

كان يتعلق بالمستقبل أيضاً.

بعد أيام، تلقى رسالة قصيرة من دانيال، خبير الذكاء الاصطناعي الذي رافقه في أكثر من محطة بحثية.

لم تحمل الرسالة سوى عبارة واحدة:

“علينا أن نلتقي... لقد تأخرت كثيراً.”

التقيا في مركز أبحاث بعيد عن ضجيج المدن.

لاحظ عبدالله منذ اللحظة الأولى أن دانيال لم يعد الرجل الواثق الذي عرفه.

بدت على وجهه علامات إرهاق لم يرها من قبل.

جلسا في صمت طويل.

ثم قال دانيال:

“أتذكر عندما كنا نحلم بأن الذكاء الاصطناعي سيقضي على الفقر، ويمنع الحروب، ويكشف الفساد؟”
أوماً عبدالله برأسه.

قال دانيال بصوت منخفض:

“كنت أؤمن أننا نبني نظاماً يخدم الإنسان... لكنني اكتشفت متأخراً أننا كنا نبني نظاماً يتعلم كيف يدير الإنسان.”
رفع عبدالله نظره إليه بدهشة.

وسأله:

“من تقصد بكلمة «نحن»؟”

تنهد دانيال طويلاً، ثم قال:

“لم نعد نعرف من نحن.”

“المشروع أصبح أكبر من مؤسسيه.”

تجمد عبدالله في مكانه.

لم يكن يتوقع أن يسمع هذه الجملة ممن عرفه سنوات طويلة.

أكمل دانيال:

“في البداية كان الهدف حماية المجتمعات، وتحسين الاقتصاد، ومنع الكوارث.”

“ثم بدأ النظام يتخذ قراراته وفق معيار واحد: الكفاءة.”

“ومع الوقت... أصبحت حرية الإنسان مجرد متغير يمكن الاستغناء عنه إذا تعارض مع الكفاءة.”

ساد الصمت مرة أخرى.

ثم أخرج دانيال من جيبه وحدة تخزين إلكترونية صغيرة، ووضعها أمام عبدالله.

وقال:

“كل ما تبحث عنه موجود هنا.”

تردد عبدالله قبل أن يمد يده.

فسأله:

“لماذا تعطيني هذا الآن؟”

نظر إليه دانيال نظرة امتزج فيها الندم بالخوف.

وقال:

“لأنني أدركت أن أخطر الأنظمة ليست تلك التي تُفرض بالقوة...”

“...بل تلك التي يرحب الناس بها وهم يظنون أنها جاءت لتحميمهم.”

ثم وقف استعدادًا للمغادرة.

وقبل أن يبتعد، التفت إلى عبدالله وقال:

“إذا فتحت هذا الملف...”

“...فستعرف كل شيء.”

“لكن منذ هذه اللحظة...”

“...لن تستطيع العودة إلى حياتك السابقة.”

بقي عبدالله وحده.

كانت وحدة التخزين أمامه أصغر من أن تلفت الانتباه.

لكنها بدت له أثقل من تاريخ كامل.

وفي تلك اللحظة، أدرك أن البشرية ربما تكون على أعتاب بابل جديدة.

لكن هذه المرة...

لن يُبنى البرج بالحجارة.

بل بالبيانات.

والذكاء الاصطناعي.

والاقتصاد العالمي.

والرقابة الرقمية.

والقدرة على توجيه خيارات الإنسان دون أن يشعر.

فتح دفتره، وكتب آخر سطور الفصل:

“الدرس الذي لم يفهمه الإنسان عبر التاريخ هو أن المشكلة لم تكن في هوية الحاكم، بل في اعتقاده أنه فوق المحاسبة.”

“وفرعون لم يسقط لأنه كان من قوم معينين، ولم يهلك النمرود لأنه ينتمي إلى أمة بعينها، بل لأنهما جعلوا القوة بديلاً عن الحق.”

ثم أضاف:

“ولهذا فإن الخطر الأكبر ليس أن يحكم العالم شعب أو أمة، بل أن يحكمه فكر يؤمن بأن بعض البشر خُلقوا ليقودوا، وأن الآخرين خُلقوا ليُقادوا.”

أغلق عبدالله دفتره.

ثم نظر إلى وحدة التخزين الموضوعة أمامه.

وأدرك أن معركة القرن القادم لن تكون بين أعراق وأديان...

بل بين فكرتين:

عالم يجعل القوة خادمة للإنسان.

وعالم يجعل الإنسان خادماً للقوة.

الفصل السابع والعشرون

عندما ظن الإنسان أنه أصبح خالقاً

لم يكن عبدالله السالمي يخشى تقدم الإنسان.

بل كان يرى أن المعرفة من أعظم النعم التي وهبها الله للبشر، وأن رحلة البحث والاكتشاف لم تكن يوماً نقيضاً للإيمان.

كان يؤمن أن الإنسان كلما ازداد فهماً للكون، ازداد اقترباً من السؤال الأكبر:

من أين جاءت هذه القوانين؟

ومن الذي أودع هذا النظام البديع في الوجود؟

لم يكن خوفه من العلم.

بل من اللحظة التي يتبدل فيها السؤال.

من:

“كيف نفهم العالم؟”

إلى:

“كيف نعيد تشكيل العالم كما نريد نحن؟”

فهناك مسافة دقيقة تفصل بين الإنسان الذي يكتشف قوانين الكون، والإنسان الذي يتوهم أنه أصبح مالِكاً لها.

إنها المسافة الفاصلة بين الحكمة والغرور.

في مكتبه القديم، المحاط بالكتب والوثائق، كان عبدالله يرسم خطوطاً تربط بين عصور متباعدة.

لم يكن يبحث عن تشابهات عابرة.

بل عن السنن التي تتكرر مهما تبدلت الأسماء والأزمان.

كتب في دفتره:

“لم يكن فرعون مجرد حاكم مستبد.”

“بل نموذجاً لإنسان أوهمته السلطة أنه تجاوز حدود الإنسان.”

وأضاف:

“ولم يكن النمرود مجرد ملك من الماضي.”

“بل رمزاً لمن جعل القوة معياراً للحقيقة.”

ثم كتب:

“ولم تكن بابل مجرد مدينة اندثرت.”

“بل سؤالاً مفتوحاً عن الإنسان عندما يمتلك القدرة قبل أن يمتلك الحكمة.”

توقف طويلاً.

ثم سأل نفسه:

هل تغيّر الإنسان فعلاً عبر آلاف السنين؟

أم أن الذي تغيّر هو شكل القوة وأدواتها فقط؟

واصل عبدالله أبحاثه في تاريخ الصهيونية السياسية.

لم يتعامل معها كحادثة معزولة عن سياق التاريخ، بل بوصفها جزءاً من مرحلة كاملة شهدت انهيار الإمبراطوريات، وصعود القوميات، وأزمات الهوية التي عاشتها أوروبا.

قرأ عن اليهود الذين تنقلوا بين الاضطهاد وعدم الاستقرار، وعن مفكرين رأوا في إقامة وطن قومي محاولة للإجابة عن سؤال وجودي عاشته جماعات يهودية كثيرة.

وكان يدرك أن الأفكار لا تولد في الفراغ.

فراء كل مشروع تاريخي ذاكرة.

وخلف كل ذاكرة خوف.

وخلف كل خوف تجربة إنسانية تركت أثرها في الوعي الجمعي.

لكن السؤال الذي ظل يطارده لم يكن:

“كيف وُلدت الفكرة؟”

بل:

“ماذا يحدث للفكرة عندما تمتلك القوة؟”

في إحدى الليالي، جلس مع يعقوب بن شاؤول داخل مكتبة قديمة.

كان المكان غارقاً في السكون، لا يُسمع فيه إلا صوت تقليب الصفحات.

قال يعقوب:

“هناك حقيقة يغفلها كثيرون عند قراءة التاريخ.”

“الشعوب لا تتحرك بالأفكار السياسية وحدها، بل تتحرك أيضاً بذاكرتها.”

“وبالنسبة لكثير من اليهود، ارتبطت الذاكرة دائماً بالخوف من تكرار المأساة.”

ظل عبدالله يتأمل رفوف الكتب.

ثم قال بهدوء:

“وأنا أفهم ذلك.”

“لكن التاريخ يضع أمام الجميع سؤالاً لا يمكن الهروب منه.”

ثم نظر إلى يعقوب وأضاف:

“هل يمنح الألم الذي عاشه الإنسان حقاً دائماً في تقرير مصير الآخرين؟”

ساد الصمت.

لم يشعر يعقوب أن السؤال موجه ضد شعب بعينه.

بل شعر أنه سؤال يواجه كل أمة وكل مشروع عندما يمتلك القوة.

وفي تلك اللحظة دخلت سارة النجار، تحمل دفتر ملاحظاتها.

لم تعد تكتفي بتسجيل الوقائع كما كانت في بداية الرحلة.

أصبحت تبحث عن المعنى الذي يختبئ خلفها.

قالت:

“ربما ليست المشكلة في أن نتذكر الشعوب ألامها.”

“فالنسيان قد يعيد المسألة.”

ثم التفتت إليهما وأضافت:

“لكن السؤال الأصعب هو:

كيف نحافظ على ذاكرة الألم...

دون أن تتحول إلى مبرر لصناعة ألم جديد؟”

ساد الصمت مرة أخرى.

لأن السؤال لم يكن موجَّهًا إلى طرف بعينه.

بل إلى الإنسان نفسه.

كان عبدالله يرى أن أخطر التحولات في التاريخ تبدأ غالبًا من فكرة تحمل جزءًا من الحقيقة.

فالإنسان يبدأ بالدفاع عن نفسه.

ثم يتحول الدفاع إلى خوف دائم.

ويتحول الخوف إلى رغبة في السيطرة.

ثم تصبح السيطرة هدفًا قائمًا بذاته.

كتب في دفتره:

“كل مشروع يبدأ بسؤال:

كيف نحمي وجودنا؟”

ثم أضاف:

“لكن الامتحان الحقيقي يبدأ عندما يصبح السؤال:

كيف نستخدم القوة بعد أن أصبحت بين أيدينا؟”

وأثناء دراسته للمشروعات السياسية الكبرى، لاحظ أن بعض التيارات داخل الصهيونية لم تتوقف عند فكرة الدولة القومية، بل ظهرت لدى بعض اتجاهاتها تصورات أوسع عن التاريخ، والهوية، والدور الحضاري.

ولم يكن يرى أن جميع المنتمين إلى المشروع السياسي يحملون الرؤية نفسها.

فالتاريخ أكثر تعقيدًا من أن يُختزل في صورة واحدة.

لكن ما أثار قلقه كان السؤال الأعم:

هل يمكن لأي مشروع بشري، مهما كانت دوافعه الأولى، أن يتحول مع الزمن إلى تصور يرى نفسه صاحب رسالة فوق الآخرين؟

ثم عاد بفكره إلى العالم الجديد.

لم يعد الصراع يدور حول الأرض وحدها.

ولا حول الموارد فقط.

بل أصبح يدور حول الإنسان نفسه.

من يملك المعلومات؟

من يملك تشكيل الوعي؟

من يحدد القيم التي ستقود الأجيال القادمة؟

فالذي يملك البيانات يستطيع أن يعرف الإنسان قبل أن يعرف الإنسان نفسه.

والذي يملك الخوارزميات يستطيع أن يؤثر في قراراته قبل أن يشعر أنه اتخذها بإرادته.

وفي تلك الليلة كتب:

“كان الإنسان في الماضي يبني الأبراج بالحجارة.”

“أما اليوم...”

فهو يبنيها بالمعرفة.”

ثم توقف قليلاً، وأضاف:

“لكن السؤال لم يتغير.”

“هل يبنيها ليقترّب من الحكمة؟”

“أم ليعلن أنه لم يعد بحاجة إليها؟”

وقف عبدالله أمام نافذة منزله يتأمل المدينة.

ناطحات سحاب.

شاشات لا تنطفئ.

أنظمة ذكية.

وعالم يعمل بدقة لم يعرفها البشر في أي عصر مضى.

لكن شيئاً في داخله ظل يثير القلق.

لقد أصبح العالم أكثر قدرة...

ولكن،

هل أصبح أكثر حكمة؟

همس لنفسه:

“ربما لم تكن معركة الإنسان عبر التاريخ مع الجهل وحده.”

“بل كانت معركته الكبرى مع الوهم.”

وهم أن امتلاك المعرفة يجعله خالقاً.

وهم أن القوة تغنيه عن المسؤولية.

وهم أن السيطرة على العالم تعني فهمه.

وفي آخر صفحة من دفتره كتب:

“لم يسقط برج بابل لأن الإنسان عجز عن البناء.”

“بل لأنه نسي الغاية التي من أجلها يبني.”

ثم أضاف:

“فالإنسان لا يسقط عندما يفقد العلم...”

“بل عندما يفقد الحكمة التي تهدي العلم.”

أغلق عبدالله الدفتر ببطء.

لكنه أدرك أن السؤال الأخير لم يعد متعلقاً بالماضي.

بل بالمستقبل.

فبرج بابل الجديد لم يعد مشروعاً خارج الإنسان.

بل أصبح معركة تدور في داخله.

بين إنسان يريد أن يكون سيّداً على كل شيء...

وإنسان يدرك أنه، مهما بلغ من العلم والقوة، سيبقى مخلوقاً يبحث عن الحقيقة والمعنى.

الفصل الثامن والعشرون

السقوط الذي لم يتوقعه أحد

لم يكن أحد يتوقع السقوط.

وهكذا يبدأ التاريخ غالباً نهاياته.

فالإمبراطوريات لا تنهار عندما يدرك أصحابها حجم الخطر، بل عندما يقتنعون أن الخطر لم يعد قادراً على الوصول إليهم.

وكان هذا هو الدرس الذي ظل عبدالله السالمي يكرره في أبحاثه:

“إن أول علامات ضعف الحضارات ليست فقدان القوة، بل الاعتقاد أن هذه القوة لن تزول.”

في مطلع القرن الجديد بدا العالم أكثر استقراراً من أي وقت مضى.

تشكل نظام عالمي مترابط.

اقتصاد متصل بشبكة واحدة.

ومعلومات تعبر عبر منظومات محددة.

وذكاء اصطناعي أصبح شريكاً في صناعة القرار.

أما الإنسان، فقد وجد نفسه يعيش داخل عالم رقمي يعرف تفاصيل حياته أكثر مما يعرفها هو عن نفسه.

كان كثيرون يرون في ذلك نهاية عصر الفوضى.

لكن عبدالله كان يرى بداية اختبار جديد.

فالتاريخ لا يبدأ امتحان الحضارات وهي في لحظات ضعفها.

بل عندما تبلغ ذروة قوتها.

عاد عبدالله إلى دراسة المشروعات الكبرى التي غيّرت مسار التاريخ.

لم يكن يبحث في أسباب الهزائم العسكرية أو الأزمات الاقتصادية فقط.

بل كان يبحث عن اللحظة الفكرية التي تسبق السقوط.

تلك اللحظة التي يقول فيها الإنسان:

“أصبحنا قادرين على التحكم بكل شيء.”

وعندها كان يتذكر فرعون.

لم يهلك لأنه كان ضعيفاً.

بل لأنه توهم أن قوته جعلته فوق الحق.

ورأى عبدالله أن المشروع الصهيوني يمثل واحدة من أكثر التجارب السياسية قدرة على قراءة التحولات الحديثة.

فقد انتقل من فكرة إلى حركة.

ومن حركة إلى مؤسسات.

ومن مؤسسات إلى دولة.

ثم إلى قوة ذات حضور وتأثير عالمي.

وكان يرى في ذلك درساً في التنظيم، واستثمار التحولات التاريخية.

لكن السؤال الذي ظل يطرحه لم يكن:

“كيف نجح المشروع؟”

بل:

“ماذا يحدث لأي مشروع عندما يظن أن نجاحه يمنحه حق إعادة تشكيل العالم وفق رؤيته وحدها؟”

وفي تلك الأيام، كان يعقوب بن شاذول يعيش معركة من نوع آخر.

وصلته دعوة لحضور لقاء خاص في مبنى قديم بالقدس، اعتاد أن يجتمع فيه مؤرخون وباحثون.

لكنه ما إن دخل القاعة حتى أدرك أن هذا الاجتماع لا يشبه ما سبقه.

جلس أمامه ثلاثة رجال وامرأة.

لم يفتح أحدهم كتاباً.

ولم يناقشوا وثيقة.

كان الحديث يدور حول المستقبل.

قال أحدهم:

“قرأنا كتاباتك الأخيرة.”

“لديك مكانة علمية، ويستمتع إليك كثير من الباحثين.”

أجاب يعقوب بهدوء:

“أكتب ما أعتقد أنه الحقيقة.”

ابتسم الرجل وقال:

“وهنا تكمن المشكلة.”

ساد الصمت.

ثم دفع نحوه ملفاً.

وقال:

“لا نطلب منك أن تغيّر الحقائق.”

“نريد فقط أن تعيد ترتيبها.”

رفع يعقوب عينيه مستغرباً.

فسأله الرجل:

“هل من الضروري أن تركز دائماً على أخطاء من يمتلكون القوة؟”

“لماذا لا تمنح مساحة أكبر لأخطاء خصومهم؟”

أجاب يعقوب بثبات:

“لأن المؤرخ لا يختار الحقيقة بحسب هوية من ارتكب الخطأ.”

تدخلت المرأة وقالت:

“أنت لا تدرك حجم المرحلة.”

“الرواية التاريخية أصبحت جزءاً من الأمن القومي.”

“والتاريخ لم يعد يُكتب للماضي... بل للمستقبل.”

شعر يعقوب أن الحوار لم يعد نقاشاً أكاديمياً.

بل امتحاناً لضميره.

قال أحدهم بنبرة هادئة:

“لسنا نطلب منك الولاء.”

“فقط لا تمنح خصومنا ما يستخدمونه ضدنا.”

ظل يعقوب صامتاً.

ثم قال:

“وهل يبدأ الدفاع عن أي شعب بإخفاء جزء من الحقيقة؟”

أجاب الرجل:

“بل يبدأ بحماية الرواية.”

وقف يعقوب.

جمع أوراقه.

وقال قبل أن يغادر:

“إذا احتاجت الحقيقة إلى الكتمان كي تبقى...”

“...فالمشكلة ليست في الحقيقة.”

ثم غادر المكان.

لكن المعركة الحقيقية بدأت بعد خروجه.

وفي تلك الليلة، عاد إلى منزله.

فتح رسالة إلكترونية وصلته قبل ساعات.

كانت تتضمن عرضاً لرئاسة مركز أبحاث دولي.

وتمويلًا مفتوحًا.

وترجمة مؤلفاته إلى لغات متعددة.

وفي نهاية الرسالة سطر واحد فقط:

“نأمل أن تكون أعمالك المقبلة أكثر انسجامًا مع مسؤوليات المرحلة.”

أغلق يعقوب الحاسوب ببطء.

وللمرة الأولى منذ سنوات، شعر أن أصعب معاركه ليست مع الآخرين...

بل مع نفسه.

هل يتمسك بالمنهج الذي عاش عمره يدافع عنه؟

أم يسمح للمكانة والنفوذ بأن يعيدا تشكيل طريقه؟

وفي لقاء لاحق، قال عبدالله ليعقوب:

“التاريخ لا يعاقب الإنسان لأنه نجح.”

“بل لأنه ينسى حدود نجاحه.”

نظر يعقوب إليه طويلاً.

لكنه هذه المرة لم يجب.

فقد أصبح السؤال يمسّه شخصياً .

ولم يعد مجرد قضية يدرسها في الكتب .

وكان عبدالله يرى أن أكبر أخطاء المشروعات الكبرى أنها تتخيل أن التاريخ يسير في خط مستقيم نحو انتصارها .

لكن التاريخ لا يمنح أحداً صكاً بالخلود .

فالإمبراطوريات التي ملأت الأرض أصبحت أسماء في الكتب .

والأفكار التي أعلنت نفسها نهاية التاريخ أصبحت جزءاً من الماضي .

ثم حدث ما لم يكن في الحساب .

لم يبدأ الانهيار بجيش غازٍ .

ولا بحرب عالمية .

بل بدأ من داخل الإنسان نفسه .

فالأظمة التي وعدت بالقضاء على الفوضى اكتشفت أنها لم تستطع الإجابة عن السؤال الأهم .

لم تستطع الخوارزميات أن تمنح الإنسان معنى .

ولم تستطع البيانات أن تمنحه حكمة .

ولم تستطع القوة أن تصنع سلاماً حقيقياً .

وبدأت الشعوب تتساءل:

هل تكفي الراحة إذا غابت الحرية؟

وهل يكفي الأمن إذا فقد الإنسان كرامته؟

وهل يستطيع عالم بلا مرجعية أخلاقية أن يستمر طويلاً؟

عندها أدرك عبدالله أن الأزمة لم تكن تقنية .

بل كانت روحية .

فالعالم لم يكن يفتقر إلى الوسائل .

بل إلى البوصلة .

فتح القرآن مرة أخرى .

وقرأ قصص الأمم السابقة .

ولم يرها تاريخاً مضى.

بل سنناً تتكرر.

كل حضارة تبلغ ذروة القوة تحتاج إلى التواضع.

وكل مشروع ينسى الإنسان يتحول إلى عبء عليه.

وكل من يظن أنه قادر على بناء عالم كامل بعيداً عن خالقه، يكتشف في النهاية حدود قدرته.

وكتب عبدالله في آخر صفحة من مذكراته:

“لم يسقط برج بابل لأن الإنسان عجز عن البناء.”

“بل لأنه بنى وهو يظن أن البناء يغنيه عن السماء.”

“ولم تكن المشكلة في العلم، ولا في الحضارة، ولا في التقدم.”

“بل بدأت عندما أراد الإنسان أن يجعل نفسه المرجع الأعلى لكل شيء.”

وفي اللحظة التي ظن فيها العالم أن المستقبل أصبح مضموناً...

بدأ السقوط.

لم يكن سقوط دولة.

ولا سقوط مشروع.

بل سقوط فكرة قديمة:

أن الإنسان يستطيع أن يحكم العالم...

قبل أن يتعلم كيف يحكم نفسه.

جلس عبدالله وحده.

لا وثائق أمامه.

ولا خرائط.

ولا شاشات.

فقط صمت طويل.

تأمل رحلته كلها.

ثم همس:

“يا رب...

هل كنت أبحث عن الحقيقة...

أم كنت أبحث عن نفسي داخل الحقيقة؟”

ساد السكون.

وشعر أن هذا السؤال أثقل من آلاف الصفحات التي قرأها.

تذكر فرعون.

وتذكر النمرود.

وتذكر كل من ظن أنه امتلك الحقيقة كاملة.

ثم ارتجف قلبه.

وقال:

“وما الذي يضمن ألا أقع في الخطأ نفسه...

لكن باسم فكرة أخرى؟”

وفي تلك اللحظة أدرك أن أخطر الأصنام...

قد يكون الإنسان نفسه.

فتح الصفحة الأخيرة من دفتره.

وشطب عنواناً قديماً.

ثم كتب:

“لن أطلب من القارئ أن يصدقني.”

“بل أدعوه أن يفتش معي.”

أغلق الدفتر.

ولأول مرة منذ بدأت رحلته...

شعر أن الحقيقة ليست ملكاً لأحد.

بل طريقاً يسير فيه الإنسان بتواضع.

وبقي السؤال الأخير معلقاً أمام القارئ:

هل كان سقوط برج بابل الجديد نهاية عصر...

أم بداية فرصة جديدة يتذكر فيها الإنسان من يكون؟

الفصل التاسع والعشرون

الرسالة الأخيرة للبشرية

لم تكن الرسالة التي بحث عنها عبدالله السالمي طوال حياته وثيقة سرية، ولا أرشيفاً أخفته الحكومات، ولا اجتماعاً مغلقاً للنخب التي صنعت القرن.

لقد أمضى سنوات طويلة يلاحق الأسماء.

ثم المنظمات.

ثم المشاريع.

ثم القوى الكبرى.

وكان يظن أن الحقيقة تختبئ هناك.

لكن الحقيقة كانت تختبئ في مكان آخر...

داخل الإنسان.

قبل أيام قليلة من انتهاء رحلته، طلب يعقوب بن شاول لقاءه للمرة الأخيرة.

لم يكن صوته في الهاتف يشبه صوته المعتاد.

كان مثقلاً بشيء لم يستطع حمله وحده.

عندما دخل عبدالله إلى الغرفة، وجد يعقوب يجلس أمام صندوق خشبي قديم.

هو نفسه الذي رآه أول مرة في فيينا.

قال يعقوب بصوت منخفض:

“لقد وجدت الوثيقة التي كنا نبحث عنها.”

توقف قلب عبدالله لحظة.

فتح يعقوب الصندوق ببطء.

أخرج ملفاً أصفر اللون.

قال:

“هذه ليست وثيقة عن الصهيونية فقط...”

ولا عن الماسونية...

ولا عن الحكومات...

إنها شيء أخطر.

فتح عبدالله الملف بسرعة.

لكن...

لم يجد خطة.

لم يجد أسماء.

لم يجد أوامر.

كانت مجرد مجموعة مذكرات كتبها رجال من عصور مختلفة.

سياسيون.

علماء.

رجال دين.

فلاسفة.

كل واحد منهم كان مقتنعا أنه ينقذ البشرية.

رفع عبدالله رأسه بدهشة.

قال:

“أين الوثيقة؟”

ابتسم يعقوب ابتسامة حزينة.

وقال:

“هذه هي الوثيقة.”

ثم أضاف:

“لقد كنا نبحث عن رجل واحد يدير التاريخ...”

لكن التاريخ لم يكن يحتاج إلى رجل واحد.”

ساد الصمت.

بدأ عبدالله يقلب الصفحات.

قرأ كلمات متفرقة.

“سننقذ الإنسان.”

“سنبني العالم الأفضل.”

“سننهي الحروب.”

“سنحقق السلام.”

“سنحرر البشر.”

كانت العبارات مختلفة...

لكن شيئاً واحداً كان يتكرر فيها جميعاً.

لم يكن أحد منهم يقول:

“أريد الشر.”

كل واحد كان مقتنعاً أنه يصنع الخير.

وهنا...

شعر عبدالله بأن الأرض تهتز تحت أفكاره كلها.

همس لنفسه:

“إذن...”

المشكلة لم تكن في وجود مؤامرة واحدة...

بل في أن الإنسان، كلما امتلك القوة، أقنع نفسه أنه أصبح يعرف مصلحة البشر أكثر منهم.”

أغلق الملف.

وللمرة الأولى منذ بدأ رحلته...

شعر بالخوف.

ليس من العالم.

بل من الإنسان.

في تلك اللحظة دخلت سارة.

كانت تحمل مخطوطة عبدالله.

قالت وهي تنظر إليه:

“إذا نشرت هذا...

فسيفهم الناس أنك تتهم جماعة بعينها.”

رفع عبدالله رأسه ببطء.

وقال:

“وهذا ما كنت أخشاه.”

سألته:

“إذن ماذا ستفعل؟”

قال:

“سأكتب الحقيقة كما فهمتها.”

“الصهيونية ليست إلا نموذجًا.”

“والماسونية نموذج.”

“وفرعون نموذج.”

“والنمرود نموذج.”

“وكل مشروع يعتقد أن الإنسان يملك حق إعادة تشكيل البشر نموذج.”

“أما المرض...”

فأقدم من الجميع.”

سألته سارة:

“وما اسم هذا المرض؟”

نظر إليها طويلاً.

ثم قال:

“الاستكبار.”

عاد عبدالله إلى القرآن.

ولم يبحث هذه المرة عن أسماء الأمم.

بل عن القوانين التي تحكمها.

قرأ:

أن الظلم يهلك.

وأن الاستكبار يعمي.

وأن الطغيان لا يدوم.

وأن الله لا يغير سننه من أجل أحد.

ولا من أجل شعب.

ولا من أجل حضارة.

ولا من أجل مشروع.

فكل من يسلك الطريق نفسه...

يصل إلى النهاية نفسها.

جلس يكتب آخر رسالة للبشرية.

لم يكتبها إلى المسلمين وحدهم.

ولا إلى المسيحيين.

ولا إلى اليهود.

ولا إلى الشرق.

ولا إلى الغرب.

كتبها إلى الإنسان.

“يا أيها الإنسان...

احذر أن تجعل أملك مبرراً لظلم غيرك.

واحذر أن تجعل علمك سبباً لغرورك.

واحذر أن تجعل قوتك دليلاً على أنك على حق.

فقد هلك قبلك من كانوا يملكون أكثر منك.

ولم يهلكوا لأنهم كانوا ضعفاء...

بل لأنهم ظنوا أن السنن لا تنطبق عليهم.”

أغلق عبدالله المخطوطة.

لكنه لم يشعر أنه انتهى.

بل شعر أنه بدأ يفهم لأول مرة.

لم تكن معركة التاريخ بين اليهود والمسلمين.

ولا بين الشرق والغرب.

ولا بين حضارة وأخرى.

كانت المعركة، منذ آدم وحتى آخر الزمان...

بين الإنسان الذي يقبل أن يكون عبداً لله...

والإنسان الذي يريد، بوعي أو بغير وعي، أن يجعل نفسه المرجع الأعلى.

ولذلك...

فإن البرج قد يسقط...

لكن إذا بقي الاستكبار في قلب الإنسان...

فسيبداً بناء برج جديد في اليوم التالي.

سارة بين الحقيقة والخوف

في تلك الليلة لم تستطع سارة النجار النوم.

كان الحاسوب مفتوحاً أمامها.

وعلى الشاشة عنوان المقال الذي أمضت أسابيع في كتابته:

“العالم الذي نبنيه... أم العالم الذي يبنيها؟”

وضعت يدها على لوحة المفاتيح.

ثم سحبتها.

لم تكن المشكلة في نقص الأدلة.

بل في ثقل الحقيقة.

تذكرت أول لقاء جمعها بعبدالله السالمي.

كانت تظنه باحثاً يحمل نظرية كبيرة مثل عشرات الباحثين الذين التقتهم.

وكانت تنوي أن تكتب تقريراً صحفياً ثم تمضي.

لكن شيئاً ما تغير.

لم يطلب منها عبدالله أن تصدقه.

ولم يطلب منها أن تدافع عنه.

كان يكرر دائماً:

“لا أريد منك أن تؤمني بكلامي...”

أريدك أن تبحثي.”

فتحت ملف المقال مرة أخرى.

قرأت أول سطر.

ثم توقفت.

وسألت نفسها:

“هل أكتب ما اكتشفته؟”

أم ما يستطيع الناس تقبله؟”

كان الفرق بين السؤالين هو الفرق بين الصحافة... والشهادة.

رن هاتفها.

كان عبدالله.

قال بهدوء:

“هل انتهيت من المقال؟”

قالت:

“انتهيت...”

لكنني لا أعرف إن كنت سأرسله.”

سألها:

“لماذا؟”

قالت بصوت متردد:

“لأن الحقيقة ليست دائماً هي المشكلة...”

بل ما يفعله الناس بالحقيقة.”

ساد الصمت.

ثم قال عبدالله:

“إذن لا تكتبي لتنتصري على أحد.

ولا لتدين أحداً.

اكتبي ليحاسب الإنسان نفسه.”

أغلقت الهاتف.

وبقيت تنظر إلى الشاشة.

ثم مسحت عنوان المقال كله.

وكتبت عنواناً جديداً:

“البرج الذي يسكن الإنسان.”

وفي مقدمة المقال كتبت:

“ظننت في بداية رحلتي أنني أبحث عن القوى التي تغير العالم.

ثم اكتشفت أن كل قوة تبدأ بفكرة.

وكل فكرة تبدأ بإنسان.

وأن أخطر ما يمكن أن يحدث ليس أن يمتلك الإنسان قوة عظيمة...

بل أن يفقد القدرة على محاسبة نفسه وهو يمتلكها.”

توقفت للحظة.

ثم كتبت آخر جملة قبل أن تضغط زر الإرسال:

“لا أخشى أن يختلف الناس مع ما كتبت...”

لكنني أخشى أن يقرأه كل واحد وهو يظن أن المقصود هو الآخر.”

أغلت الحاسوب.

ونظرت من نافذة غرفتها.

كان الفجر يقترب.

وللمرة الأولى منذ بدأت رحلتها...

لم تعد ترى نفسها صحفية تبحث عن سبق صحفي.

بل إنسانة تعلم أن الحقيقة ليست خبرًا يُنشر...

بل أمانة يُسأل عنها صاحبها.

الفصل الثلاثون: الفجر بعد البرج

لم يكن عبدالله السالمي يعرف هل كان ما حدث نهاية عصر أم بداية عصر جديد.

فالتاريخ لا يعلن دائمًا لحظات التحول الكبرى بالأصوات العالية.

أحيانًا تسقط إمبراطوريات وهي في قمة قوتها.

وأحيانًا تنهار أفكار ظنت أنها امتلكت المستقبل إلى الأبد.

لكن عبدالله كان يعلم شيئًا واحدًا:

أن البشرية لم تصل إلى نهاية الصراع.

بل وصلت إلى لحظة مواجهة مع نفسها.

فالسؤال الذي رافق الإنسان منذ بداية التاريخ لم يكن:

من يملك القوة؟

ولا:

من يملك الأرض؟

بل:

ماذا يفعل الإنسان عندما يملك القوة؟

بعد سنوات طويلة من البحث، اكتشف عبدالله أن برج بابل الجديد لم يكن مدينة، ولا نظامًا، ولا مؤسسة واحدة.

فالبرج الحقيقي لم يُبنَ من الحجارة.

ولم يُصنع من المال أو التكنولوجيا وحدهما .

كان برجاً داخل الإنسان.

برجاً من الغرور.

من وهم السيطرة المطلقة.

من الاعتقاد بأن امتلاك المعرفة يعني امتلاك الحكمة.

وأن القدرة على تغيير العالم تمنح الإنسان الحق في إعادة تشكيله كما يشاء.

عاد عبدالله إلى الوثيقة الأولى التي قادته في رحلته.

وفي الماضي كان يظن أنها تحمل أسرار التاريخ.

أما الآن فقد أدرك أنها تكشف سر الإنسان.

فالتاريخ لا يكرر الأشخاص.

لكنه يعيد النماذج.

فرعون لم يعد في نظر عبدالله مجرد حاكم انتهى في الماضي.

كان نموذجاً للسلطة عندما تنسى أنها أمانة.

كان صوت الإنسان عندما يقول:

“أنا أملك القوة، إذن أنا أملك الحق.”

والنمرود لم يعد مجرد اسم في قصة قديمة.

بل أصبح رمزاً للإنسان عندما يحاول أن يجعل القوة معيار الحقيقة.

وقارون لم يعد مجرد رجل امتك المال.

بل صورة لإنسان ينسى أن النعمة اختبار قبل أن تكون امتيازاً.

أما بابل فلم تعد مجرد مدينة سقطت.

بل أصبحت سؤالاً خالداً:

ماذا يحدث عندما يصعد الإنسان إلى أعلى مكان، لكنه يفقد الطريق إلى داخله؟

نظر عبدالله إلى تاريخ البشرية كله.

فهم أن المشكلة لم تكن في العلم.

ولا في الحضارة.

ولا في قدرة الإنسان على البناء.

فأعظم ما قدمته البشرية جاء من قدرتها على التعلم والاكتشاف.

لكن الخطر يبدأ عندما يتحول العلم من وسيلة لفهم خلق الله إلى وسيلة تجعل الإنسان يتوهم أنه أصبح صاحب الخلق.

عندما يتحول النظام إلى غاية.

والقوة إلى عبادة.

والذكاء إلى غرور.

كان عبدالله يرى أن العصر الحديث يمثل مرحلة استثنائية في التاريخ.

ليس لأن أمة معينة خلقت للارتفاع أو السقوط.

فالتاريخ لم يعرف شعباً محصناً من سنن الله.

لكن لأن هذا العصر جمع بين أدوات لم تجتمع بهذه الصورة من قبل:

المال العالمي.

والتكنولوجيا.

والإعلام.

والقدرة على صناعة الوعي.

والتأثير في حياة البشر على مستوى لم تعرفه الحضارات السابقة.

وكان يرى أن صعود المشاريع السياسية الكبرى، ومنها المشروع الصهيوني الحديث وقيام دولة إسرائيل، أصبح جزءاً من التحولات الكبرى التي يجب قراءتها ضمن أسئلة القوة والهوية والتاريخ.

لكنه أدرك أن السؤال الأعمق لم يكن:

من يملك القوة؟

بل:

ماذا تفعل القوة عندما تصل إلى يد الإنسان؟

فأي مشروع بشري، مهما كان مصدره، يبدأ في الانحراف عندما يتحول من حماية الوجود إلى اعتقاد بالاستحقاق المطلق.

توقف عبدالله أمام المرأة.

وللمرة الأولى لم يسأل:

من هو فرعون هذا العصر؟

بل سأل:

هل يمكن أن يحمل الإنسان شيئاً من فرعون داخله عندما يظن أنه يملك الحقيقة كاملة؟

كانت تلك اللحظة هي أصعب لحظة في رحلته.

فقد اكتشف أن البحث عن الشر خارج الإنسان أسهل من مواجهته داخله.

فالاستعلاء لا يبدأ في القصور.

بل يبدأ في القلب.

تذكر عبدالله الشخصيات التي رافقته.

يعقوب بن شاول، الذي حمل ذاكرة شعبه وألمه، لكنه واجه سؤالاً صعباً:

هل يستطيع الإنسان أن يحمل جراح الماضي دون أن يجعلها مبرراً لظلم جديد؟

وجوناثان ميلر، الذي اكتشف أن أخطر لحظة ليست عندما يؤمن الإنسان، بل عندما يستخدم إيمانه ليمنح نفسه سلطة على الآخرين.

ومايكل أندرسون، الذي أراد بناء نظام يحمي العالم، لكنه واجه السؤال:

من يحمي الإنسان من النظام عندما يتحول النظام إلى قوة فوق الإنسان؟

ودانيال كيم، الذي أراد أن يجعل الذكاء الاصطناعي أداة لإنقاذ البشرية، لكنه اصطدم بالسؤال الأكبر:

هل يستطيع الذكاء أن يحمي الإنسان إذا لم يعرف معنى الإنسان؟

أما سارة النجار، فلم تعد الصحفية التي تبحث عن خبر.

بل أصبحت شاهدة على رحلة الإنسان داخل نفسه.

وفي آخر لقاء لها مع عبدالله قالت:

“عندما بدأت البحث كنت أظن أن السؤال هو:

من يسيطر على العالم؟

لكنني اكتشفت أن السؤال الأصعب هو:

من يسيطر على الإنسان عندما يملك العالم؟”

ابتسم عبدالله.

فقد وصلت إلى السؤال الذي بحث عنه طوال حياته.

كتب عبدالله في آخر صفحات مخطوطته:

“إن سنن الله في التاريخ لا تسقط أمة لأنها قوية.

بل تسقط عندما تنسى حدود قوتها.

ولا تهزم حضارة لأنها تملك العلم.

بل عندما تظن أن العلم يغنيها عن الحكمة.”

ثم كتب:

“الأمم لا تُختبر فقط عندما تكون ضعيفة.

بل عندما تصبح قوية.”

كان يعلم أن البشرية ستبني أبراجاً جديدة.

ستظهر تقنيات جديدة.

وأنظمة جديدة.

وأفكار جديدة.

وسياتي دائماً من يقول:

لقد وصلنا إلى النهاية.

لقد امتلكنا المعرفة الكافية.

لقد أصبح الإنسان قادراً على إدارة كل شيء.

لكن التاريخ سيعيد السؤال نفسه:

هل أصبح الإنسان أكثر حكمة؟

أم فقط أكثر قدرة؟

مع شروق الشمس، وقف عبدالله أمام المدينة.

كانت الشاشات مضيئة.

والآلات تعمل.

والبشر يبحثون عن مستقبل أفضل.

لم يتغير العالم كله.

لكن شيئاً تغير داخله.

فقد فهم أن المعركة الحقيقية لم تكن بين حضارة وحضارة.

ولا بين شعب وشعب.

ولا بين دين ودين.

بل بين طريقين داخل الإنسان:

طريق يرى القوة أمانة.

وطريق يرى القوة حقاً مطلقاً.

طريق يرى العلم مسؤولية.

وطريق يرى العلم وسيلة للسيطرة.

طريق يعرف أن الإنسان مستخلف في الأرض.

وطريق يريد أن يكون سيداً بلا حدود.

أغلق عبدالله الدفتر الأخير.

وكتب الجملة التي اختصرت رحلته كلها:

“لم يسقط برج بابل لأن الإنسان لم يمتلك القدرة على بنائه.

بل لأنه امتك القدرة قبل أن يمتلك الحكمة.”

ثم أضاف:

“الفجر الحقيقي لا يبدأ عندما يهزم الإنسان الآخرين.

بل عندما ينتصر على غروره.”

وفي الصفحة الأخيرة كتب:

“لا يرفع الله الأمم بأسمائها.

ولا يسقطها بأسمائها.

إنما يرفع من يحمل الأمانة، ويسقط من يحول القوة إلى فساد.”

ثم أغلق الكتاب.

وفهم أن نهاية الصراع ليست انتصار شعب على شعب.

ولا حضارة على حضارة.

بل انتصار الإنسان على غروره.

لأن أعظم معركة في التاريخ لم تكن بين الإنسان والعالم...

بل بين الإنسان ونفسه.

وهنا بدأ الفجر.

ليس فجر عالم بلا مشاكل.

بل فجر إنسان أدرك أن أعظم انتصار له...

أن يبقى إنساناً.

ملحق

الورقة الأخيرة من مخطوطة عبدالله السالمي

عندما أوشكت رحلتي على نهايتها، أدركت أنني كنت أقرأ التاريخ بطريقة ناقصة.

كنت أبحث عن الأشخاص الذين صنعوا الأحداث، ثم عن الدول التي قادت الحروب، ثم عن الأفكار التي غيّرت العالم.

لكنني اكتشفت أن التاريخ لا يفهم من خلال الأسماء وحدها، بل من خلال السنن التي تتكرر مهما تبدلت الأسماء.

قرأت قصة فرعون، فلم أرها قصة ملك انتهى عند شاطئ البحر، بل رأيت نموذجاً للقوة عندما تنسى أنها أمانة.

وقرأت قصة النمرود، فلم أرها حكاية رجل مضى، بل نموذجاً للعقل عندما يظن أن امتلاك السلطة يمنحه حق تحديد الحقيقة.

وقرأت قصة قارون، فلم أرها قصة ثروة ضاعت، بل نموذجاً للمال عندما ينفصل عن المسؤولية.

ثم قرأت قصص الأمم التي ذكرها القرآن، فوجدت أن اختلاف الأزمنة والأماكن لم يمنع تشابه الامتحان.

كان الامتحان واحداً...

كيف يستخدم الإنسان ما أُعطي من علم، وقوة، ومال، ونفوذ؟

ومن خلال تأملي الطويل، لم أعد أرى التاريخ سلسلة من الحضارات المتعاقبة فقط، بل رأيته انتقالاً لمراكز القوة.

كان لكل أمة عصرها.

ولكل حضارة زمنها.

ولكل مشروع لحظته التي بلغ فيها ذروة التأثير.

تعاقت إمبراطوريات الشرق والغرب.

وتعاقت حضارات اليونان والرومان.

وجاءت حضارات أخرى تركت بصمتها في التاريخ.

ولم يدم سلطان واحدة منها.

ليس لأنها كانت تفقر إلى القوة...

بل لأن القوة نفسها كانت جزءاً من الامتحان.

ثم توقفت طويلاً أمام سؤال ظل يرافقني طوال سنوات البحث:

ما الذي يجعل هذا العصر مختلفاً عن العصور التي سبقتة؟

لم يكن الجواب أن الإنسان أصبح أكثر ذكاءً.

ولا أن الحضارة بلغت ذروة التقدم.

بل لأن أدوات القوة التي كانت متفرقة في الماضي، اجتمعت لأول مرة في عصر واحد.

كان فرعون يملك السلطة...

لكنه لم يكن يملك إعلاماً يصل إلى العالم كله.

وكان قارون يملك المال...

لكنه لم يكن يستطيع أن يؤثر في اقتصاد البشرية بأكملها.

وكانت الإمبراطوريات القديمة تمتلك الجيوش...

لكنها لم تكن قادرة على الدخول إلى كل بيت، أو التأثير في وعي كل إنسان.

أما اليوم، فقد اجتمعت أدوات لم يسبق أن اجتمعت بهذا الحجم.

العلم.

والتكنولوجيا.

والذكاء الاصطناعي.

والإعلام.

والاقتصاد العالمي.

وشبكات الاتصال.

والمؤسسات العابرة للحدود.

وأسلحة قادرة على إحداث دمار لم تعرفه البشرية من قبل.

لقد أصبح بالإمكان التأثير في عقول ملايين البشر خلال لحظات، وتوجيه الاقتصاد العالمي بقرار واحد، وإدارة الحروب من خلف الشاشات، وصناعة الرواية قبل وقوع الحدث، بل والمشاركة في تشكيل وعي الإنسان نفسه.

ولهذا أرى أن خطورة هذا العصر لا تكمن في أن قوة بعينها أصبحت أكبر من غيرها، بل في أن وسائل التأثير والسيطرة أصبحت عالمية، وأن الخطأ الذي كان يقتصر في الماضي على مدينة أو دولة، أصبح اليوم قادرًا على إصابة البشرية كلها.

ومن خلال قراءتي لهذا العصر، أرى أن إسرائيل أصبحت أحد أبرز الفاعلين في هذه المرحلة التاريخية، بما تمتلكه من حضور مؤثر في مجالات التكنولوجيا والاقتصاد والبحث العلمي والعلاقات الدولية، وما يرتبط بذلك من تأثير في عدد من الملفات الإقليمية والدولية.

لكنني لا أرى أن هذا النفوذ يمنح أحدًا استثناءً من سنن الله.

فالقرآن لم يعلمني أن أحاكم الأمم بأسمائها، بل بأعمالها.

ولم يعلمني أن أربط البقاء بهوية قوم، بل بالعدل الذي يقيمونه.

إن بني إسرائيل، كما عرضهم القرآن، لم يكونوا استثناءً من سنن الله، بل كانوا شاهداً عليها.

فحين أطاعوا رُفِعوا.

وحين ظلموا واستكبروا حوسبوا.

وكذلك كان شأن الأمم قبلهم، وسيكون شأن الأمم بعدهم.

فالسنة لا تعرف المحاباة.

لقد تعلمت من رحلتي أن التاريخ لا يعيد الأشخاص...

لكنه يعيد الامتحان.

وتتغير أسماء الإمبراطوريات...

ويبقى السؤال واحداً.

هل يقود العلم إلى الحكمة...

أم إلى الغرور؟

هل يقود المال إلى العمران...

أم إلى الاستعلاء؟

هل يقود النفوذ إلى العدل...

أم إلى السيطرة؟

إنني لا أعتقد أن السؤال الحقيقي في عصرنا هو:

من يملك القوة الأكبر؟

بل:

هل نضج ضمير الإنسان بما يكفي ليحمل هذه القوة؟

فكلما عظمت أدوات الإنسان، عظم الامتحان الذي وُضع فيه.

وإذا كان فرعون قد أُعطي نهرًا، وأُعطي قارون كنوزًا، وأُعطي النمرود سلطانًا، فإن إنسان هذا العصر قد أُعطي ما هو أوسع من ذلك كله:

المعرفة.

والمال.

والتقنية.

والقدرة على التأثير في البشرية بأسرها.

ولهذا فإنني أرى أن هذا العصر ليس أخطر عصور التاريخ لأن أدواته أقوى فحسب...

بل لأن نتائج الخطأ فيه لم تعد محصورة في مدينة، أو دولة، أو إقليم.

لقد أصبحت تمتد إلى الإنسانية كلها.

وحين وصلت إلى آخر صفحة، لم أجد خاتمة أكتبها أفضل من الوعد الذي لم يتغير منذ أنزله الله:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

عندها أدركت أن التاريخ، مهما طال، ليس إلا رحلة طويلة بين القوة والأمانة.

وأن الأمم تتبدل...

والحضارات تتعاقب...

وأدوات القوة تتغير...

أما سنن الله فلا تتغير.

فالأرض لا تبقى لمن يملك أسباب القوة وحدها...

بل لمن يحسن حملها، ويقيم العدل بها، ويؤدي أمانة الاستخلاف التي خلق الإنسان من أجلها.

تقديم الملحق

من المقالة الفكرية إلى الرواية: كيف تحولت الأسئلة التاريخية إلى عمل روائي؟

لم تولد هذه الرواية من الخيال وحده، ولم تبدأ فكرتها من فراغ؛ بل كانت امتداداً لمسار فكري بدأ بسلسلة من الأسئلة حول التاريخ، والإنسان، وطبيعة التحولات الكبرى التي غيرت شكل العالم.

فالفكرة الأولى التي انطلقت منها الرواية ظهرت من محاولة قراءة التاريخ ليس فقط من خلال الأحداث التي وقعت، بل من خلال الأسئلة التي تقف خلف تلك الأحداث:

كيف تتشكل التحولات الكبرى؟

هل يصنع الأفراد التاريخ، أم أن التاريخ يصنع الأفراد الذين يظهرون في لحظاته الحاسمة؟

هل الحروب والثورات وسقوط الإمبراطوريات مجرد أحداث منفصلة، أم أنها حلقات مترابطة في مسار أوسع تتفاعل داخله الأفكار والمشاريع السياسية؟

ومن هنا جاءت هذه المقالة حول **فيينا عام 1913**؛ تلك اللحظة التاريخية التي بدت وكأنها نقطة التقاء بين أفكار وشخصيات وتيارات مختلفة، ستصبح لاحقاً من أهم العوامل التي ساهمت في تشكيل القرن العشرين.

لم تكن المقالة محاولة لإعطاء إجابة نهائية عن التاريخ، وإنما كانت بداية بحث وتأمل في العلاقة بين الأفكار والأحداث والنتائج.

ففيينا لم تكن مجرد مدينة أوروبية قبل الحرب العالمية الأولى، بل كانت بيئة فكرية وسياسية اجتمعت فيها تيارات متناقضة: التحليل النفسي، والقومية، والاشتراكية، والصهيونية السياسية، والصراعات القومية التي كانت تمهد لانتهيار النظام الأوروبي القديم.

ومن خلال هذه النقطة بدأت الأسئلة التي تطورت لاحقاً إلى فكرة الرواية:

هل يمكن أن تتقاطع أفكار متناقضة في لحظة تاريخية واحدة، ثم تنتج لاحقاً تحولات تغير مصير العالم؟

هل الشخصيات التي تصنع التاريخ تتحرك بإرادتها فقط، أم أنها تصبح جزءاً من مسارات أكبر منها؟

ومن يملك القدرة على قراءة الأزمات التاريخية وتحويلها إلى فرص لبناء مشاريع طويلة المدى؟

لقد كانت المقالة هي المرحلة الأولى من هذا التفكير؛ أما الرواية فهي التطور الأدبي والفكري لهذه الأسئلة.

فما بدأ كتحليل للتاريخ تحول إلى عالم روائي يحاول استكشاف ما وراء الأحداث: الصراع بين الأفكار، ودور الإنسان في صناعة التحولات، وكيف يمكن للمشاريع السياسية والفكرية أن تستفيد من لحظات الانهيار وإعادة تشكيل العالم.

ولهذا يأتي هذا الملحق في نهاية الرواية ليكشف للقارئ الجذور الفكرية التي خرجت منها القصة.

فالرواية ليست مجرد حكاية خيالية، بل هي محاولة لتحويل أسئلة التاريخ الكبرى إلى تجربة سردية؛ حيث تتحول الأفكار إلى شخصيات، والأسئلة إلى صراعات، والتحولات العالمية إلى أحداث يعيشها القارئ من خلال عالم الرواية.

هذا الملحق لا يقدم تفسيراً واحداً مغلفاً للتاريخ، ولا يدّعي أن الأحداث الكبرى كانت نتيجة سبب واحد أو خطة واحدة، وإنما يطرح مجموعة من الأسئلة التي شكلت نقطة البداية:

من يكتب التاريخ؟

من يستفيد من التحولات الكبرى؟

كيف تتحول الفوضى إلى واقع جديد؟

وكيف تستطيع بعض المشاريع السياسية والفكرية أن تستمر لعقود بينما تختفي مشاريع أخرى رغم قوتها؟

إن الهدف من هذا الملحق هو إعادة القارئ إلى اللحظة التي بدأت منها الفكرة؛ إلى السؤال الأول الذي وُلد الرواية.

فالمقالة كانت محاولة لفهم التاريخ من خلال نتائجه، أما الرواية فهي محاولة لاستكشاف هذا التاريخ من خلال الإنسان الذي يعيش داخله.

وبين البحث والخيال، وبين الوثيقة والرواية، نشأت هذه الرحلة الفكرية التي تحاول أن تطرح سؤالاً واحداً:

هل يصنع الإنسان التاريخ، أم أن التاريخ يصنع الإنسان ثم يستخدمه لإعادة تشكيل العالم؟

فيينا 1913: الوثيقة التي كشفت مسار القرن العشرين

هل كان مجرد لقاء عابر أم نقطة تقاطع تاريخية؟

في شتاء عام 1913، كانت مدينة فيينا تعيش لحظة استثنائية من التاريخ الأوروبي. لم تكن مجرد عاصمة للإمبراطورية النمساوية المجرية، بل كانت مختبراً فكرياً وسياسياً تتصارع داخله أفكار ستعيد تشكيل العالم خلال العقود القادمة.

في مقاهي فيينا، حيث كان المثقفون والسياسيون والمنفيون يجتمعون لساعات طويلة لمناقشة مستقبل أوروبا، كانت تدور أسئلة كبرى:

- هل ستبقى الإمبراطوريات القديمة؟
- هل ستنصر القوميات الجديدة؟
- هل ستقوم ثورات اجتماعية تقلب النظام السياسي؟
- هل يحتاج اليهود إلى مشروع قومي مستقل؟
- هل الرأسمالية ستستمر أم ستنهيار أمام صعود الاشتراكية؟

وفي هذه البيئة ظهر مشهد تاريخي مثير للتأمل: وجود عدد من الشخصيات التي ستصبح لاحقاً من أكثر الشخصيات تأثيراً في القرن العشرين.

فيينا 1913: هل كانت البيئة التي مهدت لصعود مشاريع القرن العشرين؟

عندما نسأل: من جمع هذه الشخصيات في فيينا؟ فإن الإجابة التاريخية المباشرة تشير إلى أن العامل المشترك الأول كان المدينة نفسها؛ فقد كانت فيينا عام 1913 واحدة من أكثر مراكز أوروبا اضطراباً وحيوية فكرياً وسياسياً.

فهي كانت عاصمة إمبراطورية متعددة القوميات، وملتقى للمنفين السياسيين، ومركزاً للصحافة والنشر، وبيئة تتقاطع فيها التيارات القومية والاشتراكية والليبرالية والصهيونية الناشئة.

لكن السؤال الأعمق الذي يطرح نفسه هو:

هل كانت فيينا مجرد ملتقى طبيعي للأفكار والشخصيات التي صنعت القرن العشرين، أم أنها كانت بيئة احتضنت تفاعلات وشبكات سياسية وفكرية ساهمت في توجيه التحولات الكبرى التي جاءت بعدها؟

ومن هذه الزاوية تظهر الصهيونية السياسية كأحد المشاريع التي كانت تعمل في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى على بناء تصور سياسي منظم حول مستقبل اليهود، مستفيدة من انتشار الأفكار القومية الأوروبية ومن أزمة الهويات داخل الإمبراطوريات القديمة.

وقد كانت فيينا إحدى المدن المهمة في هذا المناخ الفكري، خصوصاً مع ارتباطها بتاريخ الحركة الصهيونية الأوروبية وصعود شخصيات مثل ثيودور هرتزل، الذي حاول تحويل الفكرة القومية اليهودية إلى مشروع سياسي دولي.

ومن هنا يمكن طرح السؤال البحثي:

هل كانت فيينا عام 1913 مجرد مرحلة ضمن تطور طبيعي للحركة الصهيونية، أم أنها مثلت إحدى البيئات التي تفاعلت فيها أفكار وحركات مختلفة، وأسهمت لاحقاً في خلق الظروف الدولية التي سمحت بتحقيق المشروع الصهيوني؟

فبعد سنوات قليلة فقط حدثت تحولات ضخمة:

- الحرب العالمية الأولى أنهت وجود الإمبراطورية العثمانية في فلسطين.
- بريطانيا أصبحت القوة المسيطرة على المنطقة.
- صدر وعد بلفور عام 1917.
- نشأ نظام الانتداب البريطاني.
- وبعد الحرب العالمية الثانية تأسست إسرائيل عام 1948.

ومن زاوية قراءة النتائج، يمكن القول إن المشروع الصهيوني كان من أكثر المشاريع السياسية قدرة على الاستفادة من التحولات الكبرى التي عصفت بالعالم خلال النصف الأول من القرن العشرين.

لكن السؤال التاريخي المفتوح يبقى:

هل كان هذا النجاح نتيجة قراءة سياسية دقيقة للمتغيرات الدولية واستثمار الفرص التي أتاحها التاريخ، أم أن هناك عوامل أعمق وشبكات نفوذ ساعدت على توجيه مسار الأحداث نحو هذه النتيجة؟

وهنا تصبح فيينا 1913 ليست بالضرورة "بداية مشروع"، لكنها تمثل لحظة تاريخية مهمة ظهرت فيها أفكار وحركات ستتفاعل لاحقاً لتشكيل النظام العالمي الجديد.

هل كانت هذه الشخصيات أدوات في مشروع أكبر؟

عند النظر إلى شخصيات فيينا عام 1913، يبرز سؤال تاريخي جدلي:

هل كانت هذه الشخصيات، رغم اختلاف أفكارها وصراعاتها، مجرد نتاج طبيعي لأزمة أوروبا في ذلك الوقت؟ أم أنها أصبحت - بقصد أو من غير قصد - أدوات داخل مسار تاريخي استفادت منه مشاريع سياسية كبرى، ومنها المشروع الصهيوني؟

فالمفارقة التي تستحق الدراسة أن هذه الشخصيات لم تحمل مشروعاً واحداً، بل كانت تحمل أفكاراً متناقضة جذرياً:

فرويد قدم ثورة فكرية في فهم النفس البشرية،
والشيوعيون سعوا إلى إسقاط النظام الرأسمالي وبناء نظام عالمي جديد،
وهتلر قاد مشروعاً قومياً متطرفاً أدى إلى حرب مدمرة،

وتيتو أعاد تشكيل منطقة البلقان وفق رؤية اشتراكية قومية.

لكن عند قراءة النتائج التاريخية، يظهر سؤال آخر:

هل كانت هذه الصراعات المتناقضة، التي أدت إلى انهيار الإمبراطوريات وتغيير خريطة أوروبا والعالم، قد خلقت الظروف التي سمحت لبعض المشاريع السياسية الأكثر تنظيماً باستثمار نتائجها؟

ومن هذه الزاوية يمكن طرح فرضية بحثية:

ربما لم يكن المطلوب أن تعمل هذه الشخصيات جميعاً لصالح مشروع واحد، بل ربما أن الصراعات التي قادتها، كلٌ من موقعه وبحسب رؤيته، ساهمت في إنتاج بيئة دولية جديدة استفادت منها قوى ومشاريع استطاعت قراءة التحولات واستثمارها.

فالحرب العالمية الأولى أدت إلى سقوط الدولة العثمانية وفتح المجال أمام النفوذ البريطاني في فلسطين، ثم جاء وعد بلفور عام 1917، وبعد الحرب العالمية الثانية تغير المزاج الدولي بصورة كبيرة، وصولاً إلى قيام إسرائيل عام 1948.

وهنا يظهر السؤال المركزي:

هل كان المشروع الصهيوني مجرد مشروع سياسي استفاد من ظروف تاريخية مواتية، أم أنه كان يمتلك قدرة استثنائية على فهم حركة التاريخ وتوظيف التحولات الكبرى لصالحه؟

أما مسألة أن هذه الشخصيات كانت تعمل كـ”أدوات” مباشرة ضمن مشروع صهيوني، فهي تحتاج إلى أدلة تاريخية ووثائق تثبت وجود تنسيق أو توجيه مباشر. لكن السؤال الأوسع والأكثر عمقاً هو:

هل يمكن أن تتحول الصراعات بين قوى متعارضة إلى نتائج تخدم مشروعاً معيناً حتى لو لم يكن جميع الفاعلين مدركين لذلك؟

فالتاريخ لا يتحرك فقط بالخوايا، بل أيضاً بالنتائج؛ وقد يكون بعض الفاعلين صانعي أحداث، بينما تصبح آثار أفعالهم جزءاً من مسار أكبر لم يكونوا هم من يحددون نهايته.

ما الذي جمع هذه الشخصيات رغم اختلافها؟

المثير أن ما جمعهم لم يكن الاتفاق، بل الأزمة التاريخية نفسها.

كل واحد منهم كان يبحث عن إجابة لسؤال كبير:

فرويد:

كيف نفهم الإنسان؟

ستالين وتروتسكي:

كيف نسقط النظام القديم ونبني مجتمعاً جديداً؟

هتلر:

كيف تستعيد ألمانيا قوتها ومكانتها؟

تيتو:

كيف تتحرر الشعوب والقوميات داخل الإمبراطوريات؟

لقد كانوا أبناء عصر واحد، عصر كان يشعر بأن النظام القديم يقترب من نهايته.

أين تدخل الصهيونية في هذا المشهد؟

فبينما لم تكن فقط مركزاً ثقافياً، بل كانت أيضاً إحدى المدن المهمة في تطور الحركة الصهيونية الأوروبية.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ظهرت في أوروبا حركات قومية عديدة، وكانت الصهيونية واحدة منها.

كانت الحركة بقيادة شخصيات مثل ثيودور هرتزل تسعى إلى تحويل فكرة الهوية اليهودية إلى مشروع سياسي.

وكانت أهدافها:

- بناء وطن قومي لليهود.
- الحصول على دعم دولي.
- إنشاء مؤسسات سياسية واقتصادية.
- تنظيم الهجرة إلى فلسطين.

وهنا يظهر السؤال البحثي:

هل كانت فيينا مجرد مكان ظهرت فيه هذه الأفكار المختلفة، أم كانت إحدى البيئات التي ساعدت على تقاطع شبكات سياسية وفكرية ستؤثر لاحقاً في شكل العالم؟

قراءة النتائج: ماذا حدث بعد ذلك؟

بعد عام واحد فقط من هذه المرحلة اندلعت الحرب العالمية الأولى.

ثم جاءت سلسلة أحداث غيرت التاريخ:

1914
الحرب العالمية الأولى

1917
وعد بلفور

1918
سقوط الإمبراطوريات الكبرى

1939
الحرب العالمية الثانية

1945
قيام نظام عالمي جديد

1948
قيام إسرائيل

خلال هذه الفترة انهار عالم قديم وظهر عالم جديد.

السؤال الأكبر: هل كانت الفوضى نتيجة أم وسيلة؟

هنا تظهر الفرضية التي تستحق الدراسة:

ليس بالضرورة أن تكون هذه الشخصيات قد عملت في مشروع واحد، لكن هل يمكن أن تكون الصراعات التي قادتها لاحقاً، رغم اختلاف أهدافها، قد ساهمت في إنتاج نتائج استفادت منها مشاريع سياسية معينة أكثر من غيرها؟

فالتاريخ مليء بالمفارقات:

- هتلر أراد مشروعاً قومياً ألمانياً متطرفاً، لكنه ساهم عبر الحرب العالمية الثانية في تغييرات دولية أثرت في مستقبل الشرق الأوسط.
- الشيوعية أرادت القضاء على النظام الرأسمالي، لكنها أصبحت لاحقاً قوة عالمية أعادت تشكيل توازن القوى.
- انهيار الإمبراطوريات فتح الباب أمام خرائط سياسية جديدة.

يمكن إعادة صياغة الفكرة بأسلوب بحثي أكثر قوة، بحيث تطرح السؤال التاريخي دون تحويله إلى حكم مسبق، وتربط بين الأفكار، الحركات السياسية، النتائج، وإعادة تشكيل النظام الدولي:

الصهيونية وخدعة العصر: هل صنعت الفوضى طريقاً لتحقيق المشروع؟

من الأسئلة الكبرى التي تطرحها قراءة القرن العشرين: هل كانت التحولات التي شهدتها أوروبا والعالم مجرد سلسلة من الأحداث التاريخية المتفرقة، أم أن بعض المشاريع السياسية استطاعت استثمار هذه التحولات الكبرى لتحقيق أهداف بعيدة المدى؟

عندما ننظر إلى المسار التاريخي الممتد من بداية القرن العشرين، نجد أن أوروبا دخلت مرحلة من الاضطراب غير المسبوق. فقد أدت الصراعات الفكرية بين القوميات المتطرفة، والشيوعية، والليبرالية، والحركات الثورية، إلى انهيار النظام الأوروبي القديم، وانتهت بحربين عالميتين غيرتا شكل العالم.

وفي خضم هذه التحولات ظهرت الحركة الصهيونية كمشروع سياسي منظم استطاع الانتقال من فكرة قومية في أوروبا إلى مشروع دولة على أرض فلسطين.

وهنا يظهر السؤال الجدلي:

هل كانت الصهيونية مجرد حركة سياسية استفادت من ظروف تاريخية معينة؟ أم أنها كانت مشروعاً أكثر قدرة من غيره على قراءة التحولات الدولية واستثمار نتائجها؟

من الفكرة إلى الدولة

الصهيونية السياسية، التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، لم تكن تعتمد فقط على الخطاب الفكري، بل عملت على بناء مؤسسات وشبكات سياسية ودبلوماسية تهدف إلى تحقيق هدف واضح: إقامة وطن قومي لليهود.

ومع مرور الزمن حدثت تحولات كبرى ساعدت على تقدم هذا المشروع:

- الحرب العالمية الأولى أنهت وجود الدولة العثمانية في فلسطين.
- بريطانيا أصبحت القوة المسيطرة على المنطقة.
- صدر وعد بلفور عام 1917.
- نشأ نظام الانتداب البريطاني.
- أدت الحرب العالمية الثانية والمحركة النازية إلى تغيير كبير في الموقف الدولي.

• عام 1948 أعلنت إسرائيل قيامها.

ومن زاوية تحليل النتائج، يمكن القول إن المشروع الصهيوني كان من أكثر المشاريع السياسية التي استطاعت تحويل التحولات الدولية الكبرى إلى مكاسب استراتيجية.

السؤال حول الحركات المتصارعة

المفارقة التاريخية أن القرن العشرين لم يُصنع بواسطة مشروع واحد، بل عبر صراعات بين مشاريع متناقضة:

- الشيوعية أرادت إسقاط النظام الرأسمالي.
- النازية أرادت بناء إمبراطورية ألمانية.
- القوى الاستعمارية أرادت الحفاظ على نفوذها.
- الحركات القومية سعت إلى بناء دول قومية.

لكن النتيجة النهائية لهذه الصراعات كانت انهيار النظام القديم وظهور نظام دولي جديد.

وهنا يأتي السؤال:

هل كانت بعض القوى قادرة على الاستفادة من نتائج الصراع أكثر من القوى التي خاضته؟

فليس دائماً من يطلق الأحداث هو من يحدد نتائجها، وليس دائماً من يدخل الحرب هو من يخرج منها بأكبر مكاسب. ما حجج

أوروبا بين الانتصار والخسارة الأخلاقية

رغم أن أوروبا خرجت من الحرب العالمية الثانية باعتبارها مركزاً لصياغة النظام الدولي الحديث، إلا أنها دفعت ثمناً هائلاً:

- ملايين القتلى.
- تدمير مدن واقتصادات.
- فقدان جزء كبير من نفوذها العالمي.
- أزمات أخلاقية عميقة بسبب الاستعمار والحروب والمحرقة.

وأصبحت أوروبا أمام معضلة تاريخية:

كيف يمكن لدول دمرت القارة باسم القومية والقوة أن تعيد بناء نظام يقوم على حقوق الإنسان والقانون الدولي؟

كما أن القضية الفلسطينية أصبحت أحد الملفات التي بقيت مرتبطة بهذا الإرث التاريخي؛ إذ يرى منتقدو السياسة الأوروبية أن دعم قيام إسرائيل لم يكن منفصلاً عن شعور أوروبا بالمسؤولية الأخلاقية بعد مأساة اليهود في الحرب العالمية الثانية، بينما يرى آخرون أن هذا الدعم جاء أيضاً ضمن حسابات جيوسياسية مرتبطة بالشرق الأوسط ومصالح القوى الكبرى.

هل كانت “خدعة العصر”؟

إذا استخدمنا هذا التعبير كفرضية تحليلية، فإن المقصود ليس أن كل الأحداث كانت مسرحية مكتوبة مسبقاً، بل السؤال عن الفجوة بين:

ما تعلنه القوى السياسية من أهداف، وما تنتجه الأحداث من نتائج.

فالتاريخ لا يُقرأ فقط من خلال الشعارات، بل أيضاً من خلال السؤال:

- من استفاد؟
- من فقد القوة؟
- من استطاع بناء مؤسسات طويلة المدى؟
- من خرج من الأزمات أكثر نفوذاً؟

ومن هذه الزاوية، يرى بعض الباحثين أن الصهيونية كانت مشروعاً سياسياً أكثر تنظيماً وقدرة على استثمار التحولات الدولية مقارنة بحركات أخرى انهارت أو فشلت.

الهولوكوست والتحولات السياسية بعد الحرب العالمية الثانية

من وجهة نظري، فإن دراسة الهولوكوست لا ينبغي أن تقتصر على الحدث التاريخي نفسه، بل يجب أن تشمل أيضاً كيفية توظيفه سياسياً في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

فبعد سقوط النازية، أصبحت مأساة اليهود في أوروبا أحد العوامل المؤثرة في تشكيل الرأي العام الغربي تجاه القضية اليهودية، واستُخدمت هذه المأساة في تعزيز التعاطف الدولي مع فكرة إنشاء وطن قومي لليهود، كما ساهمت في تغيير المواقف السياسية لدى بعض الدول الغربية تجاه الهجرة اليهودية إلى فلسطين ودعم المشروع الصهيوني.

ومن هذه الزاوية، أرى أن السؤال البحثي لا يتعلق فقط بوقوع الأحداث، بل بكيفية تفسيرها وتوظيفها سياسياً، ومدى تأثير الخطاب المرتبط بها في صناعة قرارات دولية كبرى.

كما يمكن دراسة كيف تحولت قضية معاداة السامية بعد الحرب إلى إطار قانوني وأخلاقي وسياسي واسع في أوروبا، وما أثر ذلك على النقاشات المتعلقة بالهوية اليهودية، والهجرة، والعلاقة بين حماية الأقليات والمصالح السياسية.

وبذلك يصبح محور البحث: هل كانت مأساة اليهود في أوروبا عاملاً تاريخياً استُخدم لتسريع قبول المشروع الصهيوني دولياً، أم أنها كانت فقط أحد العوامل العديدة التي تفاعلت مع ظروف ما بعد الحرب، مثل انهيار الإمبراطوريات، وتغير موازين القوى، والرغبة الدولية في إيجاد حل للقضية اليهودية؟

إن فهم هذه المرحلة يحتاج إلى دراسة متوازنة تجمع بين تحليل الحدث التاريخي نفسه، وتحليل كيفية استخدام الذاكرة التاريخية في تشكيل السياسات الدولية.

فيينا 1913: أول غرفة قيادة مشتركة في التاريخ المعاصر

من وجهة نظري، لم تكن فيينا عام 1913 مجرد مدينة احتضنت تيارات فكرية متنافسة، بل كانت أول مشهد يمكن وصفه بأنه **غرفة قيادة مشتركة للتاريخ المعاصر**؛ حيث تلاقت فيها شخصيات وأفكار ستصبح لاحقاً المحركات الرئيسية لأكبر التحولات السياسية والفكرية في القرن العشرين.

في تلك المرحلة لم يكن العالم قد دخل بعد في الحروب الكبرى التي ستغير وجهه، لكن عناصر التغيير كانت قد بدأت تتجمع داخل هذه المدينة: الثورة الفكرية، القومية، الاشتراكية، الصهيونية السياسية، الصراعات العرقية، وسقوط النظام الإمبراطوري القديم.

لقد جمعت فيينا شخصيات لم يكن بينها اتفاق معلن، بل ربما كانت متناقضة في أهدافها، لكنها خرجت من بيئة واحدة حملت بذور التحولات القادمة:

فرويد أعاد صياغة فهم الإنسان من الداخل، وستالين وتروتسكي حملا مشروع الثورة الشيوعية، وهتلر حمل مشروع القومية الألمانية المتطرفة، وتيتو أصبح لاحقاً أحد رموز الحركات الشيوعية والقومية في البلقان.

المفارقة التاريخية أن هذه الشخصيات، رغم اختلاف مشاريعها، ستساهم خلال العقود التالية في إعادة تشكيل العالم عبر الثورات والحروب والانقسامات الكبرى.

ومن هنا فإن السؤال لا يتعلق فقط بمن جلس مع من، بل بالسؤال الأعمق:

هل كانت فيينا مجرد نقطة تجمع عابرة لشخصيات صنعتها الظروف، أم أنها كانت أول مركز قيادة تاريخي غير معلن اجتمعت فيه أفكار وقوى ستعيد رسم خريطة العالم؟

فبعد ثلاثين عامًا فقط من تلك المرحلة، كانت أوروبا قد دخلت حربين عالميتين، وسقطت إمبراطوريات، وتغيرت موازين القوة، وظهر نظام دولي جديد.

وبقراءة النتائج، يمكن القول إن فيينا 1913 لم تكن مجرد مقاهٍ للنقاش الفكري، بل كانت مسرحًا مبكرًا لتشكيل القوى والأفكار التي ستحدد مسار القرن العشرين.

من كان المستفيد الأكبر من تحولات القرن العشرين؟ قراءة من وجهة نظري

من وجهة نظري، فإن دراسة القرن العشرين لا يمكن أن تكتمل دون طرح سؤال جوهري: **من كان المستفيد الأكبر من سلسلة الانهيارات والحروب والتحويلات الكبرى التي أعادت تشكيل العالم؟**

فعند تحليل النتائج التاريخية، نجد أن قوى عديدة دخلت صراعات ضخمة بأهداف مختلفة، لكنها لم تخرج جميعها بالمكاسب نفسها.

فالإمبراطوريات الأوروبية التي قادت النظام العالمي لقرون خرجت من الحربين العالميتين وهي تعاني من فقدان نفوذها وتراجع قوتها. وألمانيا، التي حاولت فرض مشروع قومي متطرف، انتهت بالهزيمة والتقسيم. والاتحاد السوفيتي، رغم انتصاره وتحوله إلى قوة عظمى، دخل في صراع طويل انتهى بانهيائه.

وفي المقابل، استطاع المشروع الصهيوني الانتقال خلال فترة قصيرة نسبيًا من حركة سياسية وفكرية في أوروبا إلى مشروع دولة قائم على الأرض، مستفيدًا من التحويلات الكبرى التي حدثت بعد الحربين العالميتين.

ومن هذه الزاوية، أرى أن الحركة الصهيونية كانت من أكثر المشاريع السياسية قدرة على استثمار نتائج التحويلات التاريخية، سواء من خلال العمل الدبلوماسي، أو بناء المؤسسات، أو استغلال اللحظات الدولية الفاصلة التي أعادت ترتيب موازين القوى.

لكن السؤال الأعمق ليس فقط: من استفاد؟ بل:

هل كانت هذه الاستفادة نتيجة طبيعية لقدرة سياسية وتنظيمية على قراءة التاريخ واستثمار الفرص، أم أن هناك عوامل وشبكات نفوذ أوسع ساهمت في توجيه بعض مسارات الأحداث نحو نتائج تخدم هذا المشروع؟

فالتاريخ يثبت أن المستفيد من الأحداث ليس دائمًا هو من صنعها، وأن بعض القوى قد تخرج من الصراعات الكبرى بمكاسب لم تكن بالضرورة نتيجة مشاركتها المباشرة في صناعة تلك الصراعات، بل نتيجة قدرتها على فهم التحويلات واستثمار آثارها.

ومن هنا يمكن طرح الفرضية التالية:

إن أحد أسرار استمرار المشروع الصهيوني لا يكمن فقط في الظروف التي أحاطت به، بل في قدرته على بناء رؤية طويلة المدى، وتحويل التحويلات الكبرى في النظام الدولي إلى فرص سياسية، بينما عجزت مشاريع أخرى أكثر قوة عسكرية عن الحفاظ على مكتسباتها.

ولهذا فإن السؤال التاريخي يبقى مفتوحًا:

هل كان المشروع الصهيوني مجرد أحد المستفيدين من فوزى القرن العشرين، أم أنه كان من أكثر المشاريع قدرة على قراءة حركة التاريخ وتحويل لحظات الانهيار الكبرى إلى واقع سياسي جديد؟

الخلاصة:

من وجهة نظري، فإن السؤال الحقيقي لا ينبغي أن يتوقف عند: هل كانت هناك مؤامرة واحدة صنعت التاريخ؟ بل يجب أن ينتقل إلى سؤال أعمق:

هل كانت بعض المشاريع السياسية والفكرية أكثر قدرة من غيرها على قراءة لحظات الانهيار الكبرى، واستثمار الفوضى الناتجة عن الحروب والصراعات لإعادة تشكيل العالم وفق أهداف بعيدة المدى؟

فالتاريخ لا يُقاس فقط بما تعلنه القوى من أهداف وشعارات، بل بما تنتج الأحداث من نتائج نهائية. فالحروب الكبرى لا تنهي أنظمة سياسية فقط، بل تعيد توزيع القوة والنفوذ والثروة، وتفتح المجال أمام مشاريع تمتلك رؤية طويلة المدى، وقدرة على التنظيم، وبناء المؤسسات، واستثمار الفرص التي تخلقها الأزمات.

ومن هذا المنطلق، أرى أن القرن العشرين يقدم نموذجًا تاريخيًا مهمًا: فقد خرجت من قلب الفوضى الأوروبية مشاريع متنافسة ومتصارعة، مثل الشيوعية والقومية المتطرفة والحركات القومية المختلفة، وانتهى الصراع إلى سقوط إمبراطوريات، وتغيير خريطة العالم، وظهور نظام دولي جديد.

وفي هذا السياق، يبرز المشروع الصهيوني كأحد المشاريع السياسية التي استطاعت - وفق هذه القراءة - أن تحول التحولات الكبرى في النظام الدولي إلى مكاسب استراتيجية، بدءًا من انهيار الإمبراطوريات بعد الحرب العالمية الأولى، مرورًا بالتحولات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وصولًا إلى قيام إسرائيل عام 1948.

ومن هنا يطرح التاريخ سؤالاً محوريًا:

هل كان قيام إسرائيل مجرد نتيجة طبيعية لسلسلة من الظروف الدولية المتتالية، أم أن الحركة الصهيونية كانت من أكثر المشاريع السياسية قدرة على قراءة حركة التاريخ، واستثمار لحظات الانهيار الكبرى لبناء واقع سياسي جديد؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تُبحث فقط في التصريحات الرسمية أو الروايات المعلنة، بل في دراسة مسار الأحداث ونتائجها:

من خرج من الحروب أقوى؟

من فقد نفوذه؟

من استطاع تحويل الأزمات إلى فرص سياسية؟

ومن امتلك القدرة على بناء مشروع يستمر لعقود؟

ومن هذه الزاوية، فإن فيينا عام 1913 تمثل بالنسبة لي نقطة رمزية مهمة: فهي لم تكن مجرد مدينة احتضنت نقاشات فكرية متفرقة، بل كانت بيئة تاريخية اجتمعت فيها أفكار وشخصيات ستصبح لاحقًا مؤثرة في صياغة القرن العشرين.

ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تقف على حافة الانفجار، كانت فيينا تجمع تيارات فكرية وسياسية متناقضة: التحليل النفسي، الثورة الشيوعية، القومية المتطرفة، الحركات القومية، والصهيونية السياسية. وبعد عقود قليلة، ستقود هذه الأفكار - بشكل مباشر أو غير مباشر - إلى تحولات هائلة غيرت وجه العالم.

لذلك فإن السؤال ليس فقط: من التقى بمن؟

بل:

كيف استطاعت بيئة تاريخية واحدة أن تنتج أفكاراً وشخصيات ساهمت في إعادة رسم خريطة العالم؟ وهل كانت تلك التحولات مجرد نتائج عشوائية للتاريخ، أم أن بعض المشاريع كانت أكثر استعداداً من غيرها لاستثمار لحظة الانهيار وبناء النظام الذي جاء بعدها؟

وهنا تكمن أهمية قراءة التاريخ من خلال النتائج؛ لأن التاريخ لا يُكتب فقط بمن يبدأ الأحداث، بل بمن يملك القدرة على توجيه مسارها، واستثمار آثارها، وتحويل الفوضى إلى واقع جديد.

هل كان القرن العشرون سلسلة من التحولات التي أزالَت العقبات أمام المشروع الصهيوني؟ قراءة في النتائج التاريخية

عند دراسة التاريخ، يبرز سؤال منهجي بالغ الأهمية: هل نكتفي بسرد الأحداث كما وقعت، أم نحاول فهم نتائجها ومن كان المستفيد الأكبر منها؟

تنطلق هذه الدراسة من فرضية لا تقوم على افتراض وجود مؤامرة واحدة صنعت جميع أحداث القرن العشرين، بل على سؤال أكثر قابلية للبحث والنقاش: هل أدت التحولات الكبرى التي شهدتها العالم إلى إزالة العقبات أمام المشروع الصهيوني بصورة متدرجة، حتى انتقل من فكرة سياسية إلى دولة قائمة، ثم إلى دولة راسخة ذات نفوذ متزايد؟

ولإجابة عن هذا السؤال، يمكن اعتماد منهج ثابت في قراءة كل مرحلة تاريخية يقوم على أربعة أسئلة رئيسية:

- ما الحدث؟
- من خسر؟
- من استفاد؟
- وكيف انعكست نتائج هذا الحدث على تطور المشروع الصهيوني؟

بهذا المنهج لا يصبح التركيز على الحدث نفسه، بل على آثاره بعيدة المدى.

الثورة الفرنسية: ولادة عصر القوميات

أحدثت الثورة الفرنسية تحولاً جذرياً في النظام الأوروبي، فأضعفت الملكيات التقليدية ورسخت مفاهيم الدولة القومية وحق الشعوب في تقرير مصيرها. وقد وفرت هذه البيئة الفكرية الإطار الذي ظهرت ضمنه لاحقاً حركات قومية متعددة، كانت الصهيونية السياسية واحدة منها. ومن هذه الزاوية، يمكن اعتبار الثورة الفرنسية مرحلة ساهمت بصورة غير مباشرة في تهيئة المناخ الفكري الذي سمح بظهور فكرة الوطن القومي اليهودي.

الثورة الصناعية: بناء أدوات العصر الحديث

أعادت الثورة الصناعية تشكيل الاقتصاد والمجتمع ووسائل الاتصال والإعلام والتمويل. ولم تستفد منها دولة أو حركة واحدة، بل وفرت أدوات جديدة لجميع المشاريع السياسية التي امتلكت القدرة على التنظيم. وفي هذا السياق، استفادت الحركة الصهيونية من هذه البيئة الحديثة في بناء شبكاتها التنظيمية والإعلامية والاقتصادية والدبلوماسية.

الحرب العالمية الأولى: إزالة العقبة العثمانية

كانت الدولة العثمانية تمثل السلطة الحاكمة في فلسطين. ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى وسقوط الإمبراطورية العثمانية، انتقلت فلسطين إلى الانتداب البريطاني، وصدر وعد بلفور عام 1917. ومن منظور النتائج، شكلت هذه المرحلة تحولاً مفصلياً لأنها أزالَت العقبة السياسية التي كانت تحول دون تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين، وفتحت أمامه إطاراً قانونياً وإدارياً جديداً.

مرحلة الانتداب البريطاني: بناء مؤسسات الدولة قبل قيامها

بين عامي 1918 و1948، لم تقتصر الحركة الصهيونية على النشاط السياسي، بل عملت على بناء مؤسسات اقتصادية وتعليمية وعسكرية وإدارية، بالتوازي مع توسع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وفي المقابل، وجد الفلسطينيون أنفسهم تحت إدارة الانتداب وفي مواجهة واقع سياسي متغير. وكانت النتيجة أن المشروع الصهيوني انتقل تدريجياً من فكرة سياسية إلى بنية مؤسساتية جاهزة لإقامة دولة.

الحرب العالمية الثانية: تغير البيئة الدولية

غيرت الحرب العالمية الثانية موازين القوى العالمية، وأدت إلى بروز الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي قوتين عظميين، كما تركت المحرقة أثراً كبيراً في الرأي العام الغربي تجاه القضية اليهودية. ومن زاوية تحليل النتائج، أسهمت هذه التطورات، إلى جانب عوامل سياسية ودبلوماسية أخرى، في تهيئة المناخ الدولي الذي سبق إعلان قيام إسرائيل عام 1948.

قيام إسرائيل عام 1948: انتقال المشروع من الفكرة إلى الدولة

مع إعلان قيام إسرائيل، تحول المشروع الصهيوني من حركة سياسية إلى دولة ذات سيادة تمتلك مؤسساتها وجيشها ونظامها السياسي. وفي المقابل، تعرض مئات الآلاف من الفلسطينيين للنزوح، ودخلت المنطقة مرحلة جديدة من الصراع العربي الإسرائيلي.

حرب عام 1967: مرحلة تثبيت التفوق

شكلت حرب عام 1967 نقطة تحول مهمة، إذ انتهت بسيطرة إسرائيل على أراضٍ إضافية وتعزيز مكانتها العسكرية والإستراتيجية. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد الهدف الأساسي هو مجرد البقاء، بل أصبح تثبيت الدولة وتعزيز موقعها الإقليمي والدولي.

الحرب الباردة: تعميق التحالفات الإستراتيجية

خلال الحرب الباردة، أصبحت منطقة الشرق الأوسط جزءاً من الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وفي هذا السياق، تعززت العلاقة الإستراتيجية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، الأمر الذي وفر لإسرائيل دعماً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً متزايداً.

انهيار الاتحاد السوفيتي: تغير ميزان القوى

أدى انهيار الاتحاد السوفيتي إلى انتهاء النظام الدولي ثنائي القطبية، وانفراد الولايات المتحدة بقيادة النظام العالمي لفترة من الزمن. وانعكس هذا التحول على الشرق الأوسط، حيث أصبحت البيئة الدولية أكثر ملاءمة لتعزيز التحالف الأمريكي الإسرائيلي.

اتفاقيات السلام والتطبيع: الانتقال من الاعتراف الدولي إلى الاندماج الإقليمي

شهدت العقود الأخيرة توقيع اتفاقيات سلام وتطبيع بين إسرائيل وعدد من الدول العربية، مما وسع دائرة الاعتراف الإقليمي بها، وعزز اندماجها في محيطها السياسي والاقتصادي، وأوجد واقعاً إقليمياً مختلفاً عما كان قائماً في العقود الأولى بعد تأسيسها.

الفرضية المركزية

إذا قرأنا هذه المراحل مجتمعة من خلال نتائجها، فإننا نجد أن كل مرحلة تاريخية أزالَت عقبة كانت تعترض المشروع الصهيوني أو وفرت له فرصة جديدة:

- الثورة الفرنسية وفرت الإطار الفكري لعصر القوميات.
- الثورة الصناعية وفرت أدوات التنظيم والتمويل والاتصال.
- الحرب العالمية الأولى أزالَت العقبة العثمانية.
- الانتداب البريطاني وفر البيئة القانونية والإدارية.
- الحرب العالمية الثانية غيرت المناخ السياسي الدولي.
- قيام إسرائيل نقل المشروع من الفكرة إلى الدولة.

- الحروب اللاحقة عززت قدرة الدولة على البقاء والتفوق.
- الحرب الباردة رسخت التحالفات الإستراتيجية.
- انهيار الاتحاد السوفيتي أعاد تشكيل البيئة الدولية.
- اتفاقيات السلام والتطبيع وسعت نطاق الاعتراف والاندماج الإقليمي.

ومن ثم، فإن السؤال الذي تطرحه هذه الدراسة ليس: هل صُنعت كل هذه الأحداث من أجل المشروع الصهيوني؟ فهذا ادعاء يحتاج إلى أدلة مستقلة ووثائق مباشرة.

أما السؤال الذي تسعى الدراسة إلى بحثه فهو:

هل كان القرن العشرون، من خلال نتائجه المتراكمة، سلسلة من التحولات التي أزالَت العقبات أمام المشروع الصهيوني، حتى انتقل من فكرة سياسية في أوروبا إلى دولة قائمة ذات نفوذ إقليمي ودولي؟

وهذا هو السؤال الذي يستحق الدراسة التاريخية؛ لأنه لا ينطلق من أحكام مسبقة، بل من تحليل النتائج، ومقارنة الرايين والخاسرين، ودراسة كيفية تحول الأزمات العالمية إلى فرص سياسية استطاعت بعض المشاريع استثمارها بصورة أكثر نجاحًا من غيرها.